13
الطبعة

طه الغريب

رواية

ولكم كثير احتقاراتي

محمد صادق

دار اكتب

طه الغريب

طه الغريب

محمد صادق

رواية

تدقيق لغوي : سارة سرحان

تصميم الغلاف : أسامة علام

رقم الإيداع : 2013/24602

I.S.B.N: 978-977-488-263-5

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة : 10 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور.

المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيي هاشم

هاتف : 01144552557 - 01147633268

E – mail :daroktob1@yahoo.com

Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة 13، يناير 2015م

طه الغريب

محمد صادق

رواية



دار اكتب للنشر والتوزيع

إهداء

- إلى أبي وأمي وسها ونهى أهدي إليكم مولودي الأول " طه الغريب " لتحمّلكم لي طوال هذه السنوات لأنه أغلى ما أملك .

- إلى سارة وغدير وميرنا ومحمد عماد ومحمد فخري لولاكم ما كتبت " طه الغريب " لأنكم أفضل من قابلت في تلك الحياة .

- إلى كلية الهندسة التي جعلتني أتمنى أكون أي شيء بخلاف أن أكون مهندساً .. أهدي إليك كتابي .

- إلى ذلك الحلم الذي كان بعيداً " دار اكتب " أهدي إليك كتابي .

- إهداء إلى كل من سيقرأ روايتي ومولودي الأول متمنياً من الله أن تنال الرواية إعجابكم .

محمد صادق

مقدمة

واقع هو أم خيال؟...

أحلم هو.. أم مجرد شيء حقيقي؟...

هل هذا هو الواقع؟...

أم ما اخترته أنا لنفسي ليصبح واقعًا؟...

ولكم كثير احتقراتي...

لكم يا من جعلتم الواقع واقعًا...

وبأيديكم جعلتم الخيال خيالًا...

وأنا لن أفعل شيئًا سوى أن أغمض عيني وأتخيل..

لأنكم لا تستحقون أن أفتح عيني لكم لحظة...

فمني أنا.. كاتب هذه السطور...

لكم كثير احتقاراتي...

—1—

ها هي ليلة أخرى قد مضت...

سعادة لحظية تمر بها ثم تعود ثانية لفكرك الذي يخنقك...

نظر للجسد الذي ينام جانبه بنظرة خابية... كم تـدير الخمـر الرأس... ألم يكن هذا الجسد حلمك البارحة؟... كيف الآن تنظر له بهذا الملل...

استند بظهره إلى مسند السرير وأشـعل سـيجارته في هـدوء واستمتاع... هاهي أكثر اللحظات كرهًا... ما بعد السعادة المؤقتـة التي تذهب طاقتك بعيدًا... فتأتي الذكريات رغمًا عنك لتفسـد أي سعادة... لكن لا...

نهض من مكانه وأزاح عنه الغطاء، واتجه نحو الـشرفة الواسـعة عاري الجذع.. لا يرتدى إلا سروالًا أسود طويل... كان الشتاء.. لذا فأول ما فتح باب الشرفة انطلق الهواء كالثلج في صـدره العـاري وأزاح الغطاء عن الفتاة النائمة، لكنه لم يعبأ بكل هذا.. بل ابتسم في نشوى جميلة وخرج ليستند إلى سور الشرفة وشرد...

كان جميلًا.. عيون واسعة سوداء، أنف مستقيم، فم كبير لكنـه متناسق مع بقية وجهه.. شعر ناعم يطير من كثرة الهواء الثلجـي.. جسد ممشوق ليس برفيع أو سمين، معتدل، تبرز عـضلات صـدره واسعة، ومنكبان عريضان.. وعين شاردة تمامًا..

متى تتخلص من هذه الوحدة الشنيعة.. متى؟

ما هذا.. ألم تنهض أساسًا كي تطرد الأفكار اللعينة؟

كم تعشق الجمال.. ولا يوجد أجمل من مصر في وقت الفجر..

ذلك الفجر الساكن..

ألم يأتك الخطاب في وقت كهذا؟

خطاب الـ...

– ما هذا؟.. أمجنون أنت؟!!.

قالتها الفتاة وهي تضع الغطاء على جسدها.. وأكملت بصوت ناعس:

– تعال في الداخل وإلا مرضت..

لم يعرها التفاتًا، فرفعت أحد حاجبيها في عبث وقالت:

– وأنت صحتك رائعة.. فلا تفقدها..

ابتسم وهو ينظر لها لأول مرة قائلًا:

– من بعض ما عندكم..

ضحكت ضحكة عالية، فعاد والتفت إلى الفضاء ثانية.. ها هي النجوم التي بينك وبينها باعًا طويلًا.. وها هي نجمتها التي تعشقها هي.. والتي عشقتها معها.. عجبًا أن تدرك الآن فقط.. إنك تعرفها وسط النجوم كلها بأنها الأقل ضوءًا وإشعاعًا.. وأبعدهم رؤية!!

– أتعشق الهواء لهذه الدرجة؟

قالتها هذه المرة من جانبه مباشرة، فابتسم ابتسامته الشاردة وقال:

– ولم هذا السؤال؟

كانت تلف الغطاء حول جسدها كله ومع ذلك ترتجف فقالت:

– انظر لحالي ولحالك.. كيف لا ترتجف فيك شعرة؟

ابتسم ابتسامة عابثة وقال:

– ربما مللت كثرة الارتجاف..

ضحكت ضحكة عالية وقالت مشيرة لنفسها بنفس العبث:

– هذا سبب آخر.. كيف تترك هذا الجمال.. وتترك نفسك للهواء؟

قال بلهجة لم تميزها:

– الهواء على الأقل طاهر!

ثم ابتسم في سعادة قائلًا فجأة وهو يضع يده حول كتفها:

– ألن يأتيّ نادر عبقرينو غدًا؟!

صمتت لحظة ثم قالت ببسمة جاهلة:

– اسمه عبقرينو؟

ضحك بسعادة ظهرت فجأة كما اختفى شروده فجأة:

– لا.. اسمه نادر عبد الرحيم.. مهندس إليكترونيات نابغة.. ظل الأول في السنين الخمس كلها.. ثم سافر بعثة إلى أمريكا.. وهو يعمل هناك منذ عشر سنوات.. ويزورنا كل عامين أو ثلاثة..

قالت باسمة وقد هدأت وبدأت تشعر بدفء يده:

– واضح أنك تحبه..

ابتسم قائلًا:

– لا أحد لا يحبه.. أنه المثالية عينها.. ثم إننا أصدقاء منذ أكثر من خمسة عشر عامًا.

قالت باسمة:

– وأنت.. مم تخرجت؟

نظر لها وقد صمت تمامًا.. ثم قال:

– معهد موسيقى..

ضحكت ضحكة عالية، وقالت وهي ما زالت تضحك:

– أنا أيضًا خريجة معهد الموسيقى..

قالتها وانفجرت ضاحكة، فضحك معها بشدة..

ها هو مستواك الثقافي.. فتحمَّله...

قالت بعد فترة من الضحك:

– وما أتى بالغرب ليعرف الشرق؟

أعاده سؤالها لنادر فقال يحكي:

– زمالة دراسة.. كنا في مدرسة واحدة.. فتعرفنا على بعضنا وأصبحنا ثلاثة لا نفترق.. نادر عبقرينو ومحمد الطيب وأنا..

قالت وهي تلتصق به أكثر كي تشعر بالدفء:

– ومن محمد الطيب هذا؟ أهذا لقب أيضًا؟

ضحك بشدة كأنما تذكر نكتة وقال:

- الطيب هذا من أحلى الشخصيات التي يمكن أن تقابليها في حياتك.. اسمه محمد حسن محمد.. إنسان من أطيب خلق الله.. أذكانا نحن الثلاثة في عيشته.. ليس معقدًا جدًّا كنادر أو خياليًّا جدًّا مثلي.. يحب ما يعمل حتى يعمل ما يحب.. متزوج وله ثلاثة أطفال.. ما زلنا نقابل بعضنا يوميًّا..

وصمت تمامًا كأنما تعب من كثرة الحديث.

ثلاثة من أروع ما كنتم.. والآن أصبحتم فقط كنتم..

الآن البرود.. والملل.. و الوحدة...

- و أنت؟

نظر لها متسائلًا فقالت:

- ألك لقب أيضًا؟

ابتسم في حزن ظهر سخرية وقال باقتضاب:

- أجل..

صمتت تنتظر فعندما لم يجب قالت تستحثه:

- ما هو يا سيدي؟

لَم تصر على معرفته؟

أنت تكرهه رغم أنه صار واحدًا في حياتك كلها ولم يعد أحد يعرفك إلا بهذا اللقب...

قال مبتسمًا:

– طه.. طه الغريب...

انعقد حاجباها في تساؤل وقالت:

– الغريب بمعنى المغترب أو العجيب؟

ضحك للسؤال المكرر عند سماع ذات الاسم:

– لا.. بمعنى البعيد...

– البعيد؟

–البعيد عن الدنيا.. البعيد عن الواقع.. البعيد عن كل شيء.

همت بقول شيء آخر لكنه قاطعها وهو يهرب من الذكريات هربًا:

– أنمضي ليلتنا في الأسئلة؟!

قالت مبتسمة وهي تجذبه من يده متجهة نحو السرير:

– لا.. دعنا نمضيها في شيء أكثر أهمية..

توقف وهو يجذبها قائلًا:

– ميعاد الطائرة اقترب...

وجذبها اليه فجأة واحتضنها بشدة جعلت قلبها يخفق في شدة.. وهو يكمل بصوته العميق:

– نسيت أن أخبرك أني أعرف ما تريده كل امرأة مني.. أو ما تحتاجه تمامًا...

واستطرد باسمًا:

– بشرط أن أنام معها...

ضحكت وقلبها يخفق في رقة...

بدأ في ارتداء ملابسه ثم توقف كأنما تذكر شيئًا وقال لها:

- أترين.. جعلتني أخبرك بكل هـذا.. دون أن أعـرف شـيئًا مهمًا...

نظرت له متسائلة...

أحقًا احتضنتها لأنك تعلم أنها تحتاج حضنك..

أم لأن عيناها تشبه عينيها....

لا...

طرد الذكريات القاسية من عقله وهو يسأل سؤاله:

- ما اسمك؟

***

الطريق...

تعشقه كما تعشق الليـل...

الطريق وحيد تمامًا.. يظل دهورًا مستكينًا وهو يداس بالأقدام، لا يفعل شيئًا إلا أن يستكين...

كم يشبهك..

لكنه جماد...

ويا لها من نعمة هو فيها ذلك الطريق...

تمشي فيه وحيدًا.. تسمع صدى خطواتك الثابتة.. أنـت كمـا تعشق الفجر تذوب في الليل.. وليل الشتاء.. حقًا لما يرمزون لليـل

بالظلم وأن من بعده سيأتي النهار؟.. وهو التشبيه بالحق.. ما النهار إلا شمس حارقة وحرارة شنيعة ووقت العمل والزحام.. أما أسوأ ما في الأمر أنك لا تستطيع فعل شيء حيال ذلك.. تستسلم للنهار كأنه مستعمر قاسي لا تستطيع الخلاص منه أبدًا.. بل تنتظر الليل في اشتياق...

أو ربما تعشقه فقط لأنك تحب الغموض والشجن...

وتحب أن تبدو غامضًا حزينًا...

وصل بيته في الدور الخامس ليفتح باب شقته ويضيء النور..

كانت شقة فاخرة.. ما إن تدخل حتى تجد مائدة طعام على بعد قليل.. يفصلك عنها سجادة فاخرة بالعرض.. على اليسار تجد غرفة معيشة بتلك الأريكة التي تتوسط الحائط.. عن يمينها مائدة صغيرة توجد عليها صور للعائلة وتليفون جانبها كرسي من نفس نوع الأريكة.. أمامهما تلفاز كبير...

ألقى نظرة خاوية على المكان.. ثم ذهب لغرفته ليبدل ملابسه ويستحم استعدادًا لاستقبال نادر القادم بعد ساعة...

ساعة واحدة..

الزمن..

وغد يمضي ويغير كل ما هناك دون شعور...

كان هذا البيت عامرًا.. فيه أب حنون وأم الجنة تحت أقدامها تبدو قليلة.. وأخت هي الصديقة التي لم يحظ بمن في إخلاصها حياته كلها..

والآن.. مات الأب.. وتزوجت الأخت.. وذهبت الأم لعدم تحملها تلك الصورة التي تبدو عليها...

لكنها حياتك...

حياتك التي في الماضي كانت ضحكًا وحبًّا وأملًا..

كانت البسمة لا تفارق شفتاك...

كما كانت لا تفارق شفتيها أبدًا...

رغمًا عنه امتلأت عيناه بالدموع.. ولكنها كعادتها وقفت عند هذا الحد...

طوال حياته تمتلئ عيناه بالدموع التي لا تهبط أبدًا...

أبدًا..

وللأسف هذا أكثر إيلامًا...

فالبكاء يريح...

رن جرس الهاتف صارخًا وسط هدوئه النفسي هذا.. فذهب نحوه بسرعة ورفع سماعته هاتفًا:

– طه الغريب..

رد عليه صوت طفولي قليلًا بمرح عظيم:

– أعلم أنك طه زفت.. لكن ما هذا؟.. أما زلت ببيتك؟!

ابتسم رغمًا عنه قائلًا:

– ولم العجلة يا طيب.. ما زالت هناك ساعة كاملة.. ولكن ما الذي جعلك تستيقظ الساعة السادسة صباحًا أيها الوغد؟

صاح محمد الطيب بمرحه الذي لا يفارق صوته إلا نادرًا:

– سؤال غبي كصاحبه.. لنأخذ نادر من المطار طبعًا...

– أعلم يا عبقري.. أقصد زوجتك.. ما رأيهـــا في اســـتيقاظك وذهابك معي؟

– غادة؟.. ستأتي معنا أساسًا.. وهي من أيقظني..

ضحك طه قائلًا:

– في هذه الحالة.. لن تكفي دراجتي البخارية المسكينة أبدًا!

رد عليه صوت أنثوي ضاحك قائلًا:

– سمعتك يا طه زفت.. أنا أكثر نحافة منك ومـــن عـــشرة مـــن أمثالك...

ضحك ثانية وهو يرد على غادة التي أخذت سماعة الهاتف:

– يبدو أنني سأغير لقبي.. بدلًا من الغريب نضع زفت!!!

ضحكت بسخريتها اللاذعة المعروفة بها:

– ما غريب إلا الشيطان..

– أكرمك الله

صاحت باسمة:

– هيا حرِّك ذلك الجسد الكسول لتفطر معنا ونذهب جميعًا...

– مريني يا سيدة الحسن والجمال..

– هيا بسرعة.

وأغلقت سماعة الهاتف فأغلق سماعته باسمًا.. غادة فاروق صديقة دراسة قديمة.. تزوجت بالـطيب بعد علاقة حب رائعة.. لذا فهما – هي وطه – إخوة بمعنى الكلمة.. وعمومًا فقد أصبح طه عضوًا دائمًا في بيت الطيب.. يشعر بأن أبناء الطيب أحبابه.. وهو شبه مقيم هناك.. غادة أخته ونادر وطه الصغيران – والذين أسماهما الطيب على اسمي أعز الأصدقاء – في مقام أخويه الصغيرين...

نقطة بيضاء في نفسك المتشحة بالسواد...

ارتدى ملابسه بغير انتظام وهبط مسرعًا ليركب دراجته البخارية الفاخرة التي أهداها له نادر في عيد ميلاده.. وانطلق بها..

أيا طه الغريب..

كم تريد وضع عقلك هذا في أقرب سلة مهملات...

أترى لحظتها سيفسد سلة المهملات كما أفسدك؟!

وصل إلى بناية الطيب فصعد إلى شقته ففتح له نادر الصغير الذي يبلغ من العمر عشرة أعوام وصاح فرحًا:

– طه!

وقفز يحتضنه بفرحة شديدة قائلًا:

– كم أوحشتني يا طه.. يومان لم تأتِ..

وقبل أن يرد ظهر طه الصغير راكضًا وكان عمره سبعة عشر عامًا، ليصيح بفرحة طاغية:

– طه الغريب الخائن...

وذهب واحتضنه بسرعة، فرد طه بضحكة حنون:

- ولم الخائن هذه؟

صاح به وهو يضربه في ذراعه:

- يومان لم تسأل علينا؟

وخفض صوته قائلًا:

- تاركنا في الملل مع أبي وأمي!!

ضحك طه من قلبه قائلًا في حنان وهو يجلس معهم على أريكة واسعة:

- حسنًا.. لا تغضب.. لن أكررها ثانية..

وقال لهما وهو يغمز لطه الصغير هامسًا:

- ولكي أصالحكما.. سآخذكما من المدرسة اليوم..

- هذا رائع..

كانت هذه من نادر في مرح طفولي.. في حين فهم طه الصغير.. فاحمرت أذناه قليلًا.. في حين أكمل طه:

- هيا اذهبا لارتداء ملابسكما المدرسية.. هيا..

ذهبا مسرعين وهو ينظر لهم بمرح.. اللحظات النادرة التي يقضيها بمرح صاف تكون مع هذين.. حتى حينما يكون في حضور نادر عبقرينو لا يأخذ راحته أبدًا.. ويقول كل كلمة بحساب حتى لا تقلل قيمته.. فأصبح متعة حياته هي هذين الطفلين - أو المراهق والطفل - ويعشقهما...

-كم جعلت أولادنا يكرهوننا أيها الوغد...

ارتفع صوت الطيب صائحًا بمرح وهو يأتي من الداخل مرتـديًا بذلة رسمية كاملة واحتضنه باشتياق وطه يقول:

– أفتقدك حقًا...

قال الطيب بضحكة مشرقة:

– أنت دائمًا الغريب.. يا غريب!

كان سمينًا وقصيرًا قليلًا بالمقارنة لطول طه الفارع.. هو مدرس.. مدرس في مدرسة خاصة.. مادة الاقتصاد والإحصاء.. لذا فهو على قدر موفور من الغنى بسبب الدروس الخصوصية..

نظر الطيب إلى طه قائلا باستنكار:

– ما هذه الملابس؟!.. هل تنوي أن تقابل نادر هكذا؟

– لماذا تشعرني أن نادر وزير مثلًا؟ إنه نفس الصديق الذي كـان يضربنا على قفانا ويركض.. ونفس الشخص الذي كان يأخذ منـا النقود أحيانًا.. فلم كل هذا الاحترام؟

قالها وهو يشير إلى البذلة الرسمية.. فرد الطيب وهو يستنكر مـا يسمعه ولا يقبله:

– لكنه الآن أفضاله كثيرة علينا.. فأقل بذلة يـشتريها تكـون بـ700 دولار..

صاح طه بسخرية:

– يااااه.. على هذا كم تظن ثمن ملابسه الداخلية؟

قال صوت أنثوي مرح:

– عندما تملك شيء منها.. سنقول لك بكم!!

صاحت بها غادة وهي تدخل عليهم لتفجر طه من الضحك، فهو يعشق الدعابة الجيدة حتى لو كانت ضده.. في حين نظر لها الطيب نظرة لوم طفيفة لما في دعابتها من سوء أدب..

قال طه وهو يسلم عليها:

- غادة.. ما أخبارك يا أم العيال.. وأخبار أطفالك؟!

نظرت له بلوم طفيف قائلة:

- بخير.. لكنهم بدءوا في التمرد علينا قليلًا...

-عمي طه...

قالتها فتاة في السادسة عشر بفرحة شديدة.. وجرت تقفز لتحتضنه في شوق.. فابتسم هو بحنان قائلًا:

- أشجان.. أوحشتني حقًا...

أشجان...

يا له من اسم أخذ من عمرك الكثير..

ومن قلبك أكثر...

لماذا أصرت غادة أن تسمي ابنتها على اسمها...

لماذا أصرت أن تثير كل يوم في قلبه عواصف وعواصف...

لكنك أنت الأحمق..

أنت من تعيش في عالمها حتى الآن..

وللحظة.. وسط الحزن المرتسم على وجهه دومًا...

ابتسم..

يا له من عالم..

عالم بسمتها...

عالم عيناها..

عالم حبها...

ودقة قلبها..

"عمى طه"

التفت إليها بشرود فقالت بمرح:

- من أخذ عقلك مني؟

صمت وابتسم وهو يحتضنها قائلًا:

- ومن يسمع هذا الصوت ولا يذهب لآفاق السماء؟

ضحكت وحمرة الخجل علي وجنتيها قائلة:

- يا منافق.. ألن تنتهي من كذبك هذا أبدًا..

هنا صاح الطبيب بصرامة لها:

- بنت.. كيف تقولين هذا لشخص في عمر أبيكِ؟

صمتت متفاجئة خجلانة.. فنظر طه للطبيب بلوم قائلًا:

- لا بأس.. لم تكن في نيتها سوء..

صمت الطبيب غاضبًا وقال بحدة:

- هيا.. ارتدي ملابسك..

نهضت حانقة ومشت بسرعة من الغضب...

قال الطيب بصرامة:

– لاحظت أنها تكلم عمها وجدها بالطريقة نفسها.. معك لا توجد مشاكل... لكن ليس مع الأغراب..

قال طه بسخرية:

– وهل أبوك وأخوك أغراب؟

نظر له مستخفًا وقال:

– أنت تفهم قصدي..

نهض طه قائلًا:

– افعل ما تشاء معهما.. لكن لا تنهرها أمامي.. أتفهم؟

لم يرد.. ونظر لساعته وقال مفزوعًا:

– نادر.. لقد تأخرنا عليه..

وصاح بصوت عالٍ:

– هيا يا غادة.. بسرعة..

جاءت غادة مرتدية جميع ملابسها، وذهب هو يأخذ مفاتيحه من على التلفاز ويذهب للباب لينطلق بسرعة، فصاح فيه طه ببسمة خفية:

– يا طيب.. إن ما تلبس رائع.. لكن ينقصه شيء بسيط..

صاح الطيب بعجلة:

– ما هو؟

قال طه باسمًا:

– الحذاء...

نظر الطيب بدهشة لقدميه فلم يجد حذاءً.. في حين انفجر طـه وغادة ضاحكين...

بخطى بطيئة تتجه نحو المطار...

ها قد سبقك الطيب وغادة وأنت تمشي ببطء على غير عادتك...

حكمت على نفسك بالذكريات.. فلتحتمل...

فيلم في عقلك يدور.. لقطات سريعة متقطعة بلا انتظام..

–لا....

–وداعًا...

–هيا.. لا تتباطئي يا غبية...

–لا بد أن أراك قبل الرحيل...

–دعني أذهب.. دعني أذهب...

–سأرحل للأبد.. للأبد...

–أحبـــــــــــــك...

–سأرحل الآن.. سيأخذونني إلى المطار حالًـا.. يجـب أن أرى وجهك...

–مسكين الشاب.. حادثة أمام المطار.. كيف لم يلحـظ وجـود السيارة الأخرى؟.

–لم أخطئ.. لقد كان هو وصديقه مسرعين جدًّا...

–صحيح.. أين الآخر.. لقد كان مصابًا بشدة...

-لقد ركض - رغم إصابته - نحو المطار...

-مسكين.. لا يعلم أنه غاب عن الوعي ربع ساعة...

-ربع ساعة!!.

-هيا.. لا تتباطئي يا غبية ..

صوت طائرة.. تقلع...

أغمض عينيه في ألم...

وتوقف أمام البوابة...

يا للذكريات اللعينة..

بخطى أكثر تخاذلًا دخل المطار وذهب نحو الطبيب وغادة.. فنظر الطبيب لطه ليجد نظرة عينيه للمكان والدموع الحبيسة التي طالما ظلت مكانها لم تهبط.. وانكماش طه كأنه يشعر بالبرد.. فصمت الطبيب تمامًا والذكرى تداهمه أيضًا...

كم يتألم كلما تصور حالة صديقه...

قال بلهجته الضاحكة كي يغير ما يدور بداخله:

- كم أنا عجول.. ظننت أننا تأخرنا وها قد وصلنا قبل الطائرة بربع ساعة كاملة...

نظر له طه بشرود قائلًا:

- جيد أننا مبكرين.. هذا خير ألف مرة من أن نتأخر..

فهم الطبيب ما يعنيه فقال بضحكة مغيرًا الموضوع للمرة الثانية:

- أنا جوعان.. سأذهب لآتي بأي شيء نأكله...

أوقفه طه وأخرج نقودًا من جيبه وأعطاها إياه قائلًا:

- لا تنس قصص الأولاد...

صمت الطيب لحظة ثم ابتسم في حنان قائلًا:

- أتذكر الأولاد دائمًا؟

ابتسم ابتسامة باهته وهو يقول:

- إنها مهمتي الأسبوعية.. لن أتقاعس عنها أبدًا...

ذهب الطيب ببسمة حنون ليأتي بالأشياء...

- ما بك؟

قالتها غادة ببسمتها الواسعة وهي تكمل:

- منذ حوالي ربع ساعة لم تنطق معي بكلمة أو تسخر مني.. ما بك؟

قال ببسمة خفيفة:

- مللت من انتقادك.. ليس أكثر.

ضحكت قائلة:

- هذا مستحيل.. ما بك حقًا؟

رفع أحد حاجبيه وهو يقول بشجن ما:

- الذكريات...

صمتت وهي تنظر له بإشفاق وقالت ببسمة جميلة:

- لا أدري أأحترمك لوفائك أم ألعن غباءك؟

ابتسم في حيرة قائلًا:

- الاثنين معًا...

نظرت له كأنما هي مترددة، ثم حسمت أمرها متسائلة:

- أنادم أنت على معرفتها؟

نظر لها وقال باسمًا بعد فترة صمت:

- هل ندمت يومًا لأنك تتنفسين؟

ارتفع حاجباها تأثرًا وقالت:

- كم أريد أن يحبني أحد مثل حبك لها...

عادت بسمته الساخرة في ثوان وهو يقول:

- هيا إذن.. انتحري أولًا وسنتصرف فيما بعد...

ضحكت بشدة.. ربما هذه هي ميزته.. في أسوأ حالاته يظل خفيف الظل.. كأنما ولد وهو يسخر..

- أجاء بعد؟

قالها الطيب وقد أتى بالطعام والمجلات فأشارا له بأنه لم يأت بعد..

-هذا لأنكم تملكون عقل السلحفاة...

نظروا ناحية الصوت فإذا به شاب في التاسعة والثلاثين.. طويل القامة.. رفيعًا.. يلبس عوينات وله شارب وذقن على شكل دوجلاس.. دكتور لو نظرت من بعيد.. شاب مصري جميل لو تعرفه كما نعرفه.. مهندس عبقري كمهنة...

-عبقرينو....

صاح بها طه وهو يحتضنه بفرحة صادقة ويحمله ويدور به بشدة.. ضحك الجميع في سعادة.. رحَّب به الطيب بمثل الفرحة وهو يضحك بشدة.. لا أحد ينكر أن هؤلاء يحبون بعضهم فعلًا مهما فعل بهم الزمن من تغيير في الفكر والنفوس...

صاح به طه وهو يربت على كتفه:

– من أين أتيت؟!! لقد قال لنا الطيب إنك على رحلة رقم واحد ثلاثين..

قال نادر وهو ينظر للطيب بلوم:

– أحمق طوال عمرك.. ألا تميز بين 31 و13؟

صمت الطيب لحظة مندهشًا، ثم قال بسرعة عندما وجد نظرة طه وغادة القاتلة له:

– لا.. أنا متأكد من أنها واحد وثلاثون.. أقسم بهذا.

ضحك نادر من قلبه وقال مازحًا:

– لا تقسم فأنت صادق... أنا من غيرت الطائرة لأخرى مبكرة عن هذه..

ونظر حوله وهو يخرج من المطار متنهدًا:

– أوحشتني مصر جدًّا.

والتفت لهم مكملًا بسعادة:

– وأوحشتموني أيضًا يا أصدقاء..

ونظر لطه بمعنى خاص فقال طه:

- ستعود لبيتك لتستريح، ثم نلتقي ليلًا لتصفية حساب سنتين من الهجرة..

***

لم ينم كعادته، وإنما ذهب - بعد توصيل نادر - إلى عمله كموظف في شركة مبيعات، كل عمله هو الذهاب إلى الشركات والمنازل لإقناعهم ببضاعة معينة هو يبيعها، مهنة بسيطة غير مربحة.. لكنها مهنة...

لم يكن يومه في النوبات، لذا فقد انصرف مبكرًا، وذهب مسرعًا لمدرسة طه الصغير ووقف أمامها منتظرًا...

الدراسة.. وأيام المدرسة...

عمر بأكمله لم تدخله بإرادتك.. ولكنك تتمنى أن تعيش فيه أبدًا...

هنا كانت أول نظرة، وأول كلمة، وأول دقة...

يا إلهي.. ويا لنسيم الذكريات اللطيف...

لم يكن يعرف أن للذكريات كيان مادي ملموس.. فعندما يتذكر ما كان يحدث في تلك المدرسة من عشق وحياة جميلة طويلة، ترتجف كل ذرة في كيانه، ويدق قلبه في سعادة صافية.. ويبتسم...

فقط يبتسم...

ويشعر بالحياة...

ظهرت بسمته الحزينة لحظة عندما سمع صوتًا خلفه يقول بفرحة:

- طه..

ميز صوت أشجان ، فنظر اتجاهها باسمًا، واندفعت هي نحوه لتسلم عليه بحرارة قائلة:

– لقد نفَّذت وعدك.. هذه فعلًا تحسب لك..

وعرَّفته على أصدقائها؛ فنظر لهم لحظة ثم قال ببسمة واثقة مشيرًا إليهم:

– هذه ناجحة في دراستها، وهذه تحب من طرف واحد، وهــــذه تتمنى أن تجد الحب الحقيقي، وهذه محترمة، وهذه...

ثم صمت فجأة وقال لأشجان بسخرية:

– لا تعرفيها مرة أخرى..

ضحكن جميعًا.. حتى تلك الفتاة، في حين قالت أشجان له بتحدٍّ:

– هذه الفتاة هي من أعز أصدقائي.. اسمها منى..

وقالت منى بمرح:

– وعلى فكرة كل أحكامك فينا خطأ...

ضحك طه بشدة ثم قال:

– أشك.. فأنا نظرتي لا تخيب أبدًا...

قالت أشجان مشاكسة:

– وأنا.. أنت لم تقل عني شيئًا.. مثلًا هل أحب أم لا؟!

قرص خدها وهو يقول باسمًا:

– لن أسمح لك بأن تحبي أحدًا غيري..

لكمته في ذراعه قائلة:

- وهل عميت؟!!

ابتسم في حنان...

ذكريات، ذكريات، ذكريات...

قال بهدوء:

- هيا.. اذهبن والعبن قليلًا، سأذهب للبحث عن أخيك، وأنصرف بكم..

قالت وهي تنصرف باستنكار:

- العبن؟!.. فتيات في السادسة عشر يقال لهن العبن؟

قال بلهجة من فاض به الكيل:

- آسف.. هيا اذهبن وتزوجن...

ضحكن وهن ينصرفن، ومنى همس لأشجان:

- إنه رائع..

قالت أشجان ببسمة:

- أنا أعشقه.. فهو أعز صديق لي...

ذهب طه الغريب لفصل طه الصغير وقد كان ميعاد الانصراف، لكنه يعلم أن طه يظل في الفصل لأسباب معينة...

وقف أما الفصل لينظر داخله، وارتفع حاجباه في حنان شديد..

لقد كان طه الصغير يتكلم مع فتاة بشوش ومرحة، وقد كان يحدثها وعينيه تفضحانه بشدة، والمصيبة أن عينيها كانت تفضحاها هي الأخرى...

لم يكونا وحدهما إنما في وسط مجموعة من أصدقائهما.. لكن كان من الواضح أن الحديث الذي بينهما يخصهما وحدهما...

مشهد واحد بسيط قلب كيانه رأسًا على عقب، وضرب به عرض الحائط...

كم يتمنى أن يعود يومًا واحدًا معها...

كم يشتاق لأن يرى وجهها الصبوح أمامه...

كم يشتاق إليها...

ارتجفت يده بعصبية، عندما حاول الابتسام وهو يدخل الفصل صائحًا بصوت صارم، ينتزع نفسه من الذكريات انتزاعًا:

– ماذا تفعلون هنا؟

انتفض طه الصغير والفتاة معًا، في حين لم يحدث شيء للباقين تقريبًا..

فصاح طه الصغير بضحكة ولوم:

– طه.. لقد أفزعتني...

وسلم عليه، فقال طه الغريب ناظرًا للفتاة:

– ومن هي تلك الفتاة الجميلة؟!

قالت الفتاة وهي تسلم عليه:

– حنان.. زميلة طه...

– طه الغريب.. صديق طه.. وقد سمي على اسمي..

قالت بفرحة شديدة:

- أنت هو إذن.. إن طه لا يتكلم إلا عنك...

نظر الغريب لطه بلوم وقال ساخرًا:

- أحمق.. من يتكلم عني أمام فتاة بهذا الجمال طوال الوقت فهو أحمق..

ضحكت بخجل وطه الصغير يقول:

- أرأيتِ؟ كل ما أخبرتك عنه صحيح..

***

استيقظ نادر عبقرينو متأخرًا، ونهض بنشاط يرتدي ملابسه بسرعة.. كان يريد أن يبدأ يومه بنشاط، بسبب تلك الفكرة التي في عقله منذ الصباح.. والتي سيفاجئ بها الجميع الليلة...

أكمل ارتداء ملابسه، ووضع عطرًا فخمًا، ولبس عويناته الجميلة على وجهه، ونظر لنفسه في المرآة لحظة.. ثم ذهب وخرج من شقته، وضغط زر المصعد ووقف في انتظاره فترة.. حتى جاء وانفتحت أبوابه...

ونظر ليجد مفاجأة مذهلة...

مذهلة بكل المقاييس...

ونظرت له من كانت بالمصعد واتسعت عيناها في ذهول...

لم يتغير...

كما لم تتغير هي...

انعقد حاجباه في شدة وتسمر مكانه وقلبه يخفق بسرعة شديدة وهو يهمس بالكلام همسًا:

– سما؟!!

وتمتمت هي باسمة:

– نادر؟

كيف في ثانية واحدة، ينفض القلب ذلك الصدأ الذي كان يغطيه ويدق كما لم يدق من قبل.. فهو يخفق الآن بشدة...

سما...

سما التي يئس من العثور عليها منذ فترة طويلة...

ورغم طول الفترة، لم ينسها أبدًا...

أما هي، فابتسمت في سعادة حقيقية وقالت:

– تفضل.. المصعد لن ينتظر طويلًا...

وضحكت مكملة في بساطة:

– أم إنك لا تريد؟

أفاق من ذهوله وقال بارتباك لأنه لم يتعود أن تكلمه بتلك البساطة:

– لا.. لا بالطبع..

وتقدم في هدوء وقلبه يرتجف...

وأغلق المصعد...

***

في ثوانٍ زال الحاجز بينهما...

خرجا معًا وتمشيا معًا في بساطة دون ذلك الخوف والتكلف الذي كانا يخشيانه في الماضي...

فالآن أصبح كلاهما ناضجًا ومسئولًا...

وانطلقت هي تروي وهما يمشيان معًا، وهو يستمع...

سما كانت من أكثر أعضاء شلتهم بعدًا عنهم، ربما لأدبها الزائد، ورفضها للعلاقات بين أي ولد وفتاة...

لكنه رغم كل هذا أحبها...

وهي رغم كل هذا أحبته..

ولكن ربما لأدبها الجم وشخصيتها الهادئة، وأيضًا لتدخُّل جميع أفراد الشلة في موضوعهما.. قررت كتمان هذه المشاعر.. بل ورفضته في وجهه لتجعله يعيش أسوأ أيام حياته.. وتحكم على نفسها بعذاب أكبر.. وكعادة هذه الدنيا، بعد الدراسة والجامعة تزوجت.. كانت تحبه وكل حياتها فيه، وتحلم معه و...

–طُلّقت...

قالتها، فاتسعت عيناه في ذهول وهو يهتف:

– ماذا؟

قالت مبتسمة رغم الدموع التي تحجرت في عينيها:

– طلقني...

قال بغضب جاء تلقائيًّا:

– لماذا؟!

صمتت لحظة وهي تنظر له نظرة حزينة، ثم لم تلبث أن أنهت مقاومتها وتركت دموعها تهبط:

– لأنني لا أنجب..

- ثم؟

قالها متسائلًا بغضبه الشديد وأكمل وهو لا يصدق:

- إن من يملك شخصًا مثلك.. لا يهمه أشياء تافهة كهذه...

نظرت له مندهشة، في حين أدرك هو اندفاعه، فنظر إليها..

وأدرك قلبها...

صمتت لحظة، ثم ابتسمت مغيرة الموضوع:

- عندي لك مفاجأة..

نظر لها متسائلًا وقال:

- لقد التقينا منذ نصف ساعة وصدفة.. كيف تحضرين لي مفاجأة؟؟

صمتت لحظة مفكرة ثم قالت ببسمة صافية:

- عندك حق.. ليس الآن...

ونظرت لساعتها ثم قالت وهي تنظر له بأسف حقيقي:

- سأضطر للانصراف.. صحيح.. ماذا كنت تفعل في مبناي؟

نظر لها غير مصدق وقال:

- مبناك؟

أومأت برأسها قائلة:

- أنا في الدور السابع.

- منذ متى؟

- منذ سنة واحدة...

لم يصدق نفسه من الفرحة، وقال لها باسمًا:

– أنا في السادس.. منذ سبعة سنين.

خفق قلبها خفقة لذيذة، جعلتها تبتسم قائلة:

– كيف لم أرك اذن طوال هذه المدة...

– هذه قصة طويلة..

هزت كتفها في بساطة وقالت:

– احكِ كما تشاء...

ثم صمتت لحظة أكملت بعدها ببسمة:

– فطريقنا واحد...

-2-

قهوة السباعي...

مكانهم المفضل من بين كل الأماكن...

وعلى أفضل ركن فيها.. جلس ثلاثتهم.. نادر ومحمد وطه...

وفي يد اثنين منهم شيشة والثالث قهوة...

قال نادر وهو يحتسي من فنجانه:

– لكم أوحشتني تلك الجلسة...

ابتسموا في هدوء، وقال طه وهو ينظر له:

– احكِ لنا عن سنتين مروا عليك دوننا...

نظر له نادر لحظة، وقرر قول موضوع أجَّله كثيرًا:

– ماذا فعلت أنت يا طه خلال عامين؟

صمت طه وقد لاحظ لهجة نادر الجادة، لكنه قرر الهروب كعادته الأثيرة وقال ببسمة ساخرة:

– بنيت جبالًا وقصورًا.. وتركت أثرًا مهمًّا في العالم حتى أن تمثالي الآن يرمز للتاريخ.

ضحك الطيب في حين قال نادر بلهجة حادة لم تخلُ من الصرامة:

– كلمني كما أكلمك..

صمت الطيب مندهشًا في حين قال طه ببسمة هادئة:

– ماذا هناك يا نادر؟.. لم تتكلم بتلك الطريقة؟!

– مللت من الغياب سنين، والرجوع لأجد نفس الشخص السلبي السخيف..

ضحك طه لدهشة نادر وهو يقول:

– ما الجديد في هذا؟!.. أنت معي لأكثر من ستة عشر عامًا.. والآن فقط مللت؟

أثار هذا الرد غضب نادر بشدة، فقال بحدة:

– أنا لم أمل عدم تغييرك، أنا مللت تحملي لهذا!!

انعقد حاجبا طه، فقال نادر وقد هدأ قليلًا:

– طه.. لماذا أنت هكذا؟

وعندما لم يجد ردًّا أكمل في حيرة عصبية:

– أين طه الغريب الذي عرفته منذ سنين؟.. أين الحماس والسخرية؟.. أين أنت أيها الصديق؟

المزيد من الصمت والنظرات اللائمة من الطيب.. لكن نادر لم يصمت.. وكأنما صمت واحتمل – كل هذه الأعوام، والآن يفرغ ما به من طاقة.. فهو حقًّا حانق هذه المرة عليه.. فقال وهو ينظر لطه الذي أدار عنه وجهه ونظر للأرض بشرود:

– أنت تعلم جيدًا أنك عبقري.. عبقري في موسيقاك وألحانك...

يااه.. أما زلت تذكر يا نادر.. إنه التاريخ يا بني...

قالها طه داخله، وكل ما نطق به هو بسمة ظهرت على شفتيه جعلت نادر يكمل في عصبية:

- أنا الذي لا يوجد في الأرض أجهل مني بالموسيقى كنت أعشق ألحانك.. كنت أنت وأورجك شيئان لا يفترقان.. كان فنك هو الشيء الوحيد الذي يميزك عنا... وعن البشر أجمعين.

- ليس الشيء الوحيد...

قالها طه بصوت خفيض، فلم يسمعه نادر جيدًا فقال بعصبية:

- بماذا تتمتم؟

رفع صوته قليلًا وقال:

- لم يكن هو الشيء الوحيد الذي يميزني...

قال نادر متسائلًا:

- وأي شيء هذا الذي كان يميزك؟

صمت طه تمامًا...

إن نادر يصر على فتح الجرح....

الذي - رغم السنين - ما زال مفتوحًا...

قال طه ردًّا على السؤال بصوت جريح:

- أشجان...

نطق اسمها بحنان فائق...

نطقه كأنما ينطق بسر حياته...

بطريقة..جعلت قلب نادر يقطر شفقة...

ورغم ما به، قال نادر بعصبية متعمدة وبنفاد صبر:

- يا إلهي.. عدنا لأشجان ثانية..

- كل الطرق في حياتي هي نهايتها...

- أتعني أن موهبتك ماتت معها؟

- قلبي هو من مات معها.. والموهبة دون قلب بلا معنى...

- أما زلت تعيش في وهمها؟

- لم تكن وهمًا يومًا.

- وحياتك؟

- كيف أحيا وقلبي ميت؟

- قلبك لم يمت.

- قلبي مات من سبعة عشر عامًا...

صمت نادر كأنما لا يصدق هذا الرد وقال وقد زادت عصبيته:

- أنت تحكم على نفسك بالإعدام.

- .... أعلم هذا...

- لعنة الله عليك.. أشجان ماتت.. أفق.. أشجان ماتت...

وانتفض قلب طه بين ضلوعه...

فبرغم معرفته بهذا الأمر منذ سنين، إلا أن سماعه يقبضه..

قال وقد ظهرت عصبيته:

- نادر.. اصمت...

- أشجان كانت تحب فيك روحك.. تحب فيك إحساسك...

- نادر.. اصمت..

– كلنا نعلم أن أشجان هي من قاومت معك الجميع حتى تحقــق حلمك..

– نادر...

– أتعلم شيئًا يا طه؟ هل تصورت أشجان لو حيــة.. ورأتــك هكذا.. ماذا ستفعل؟!

– اصمت..

– تراك وأنت تخونها كل يوم وكل ليلة مع فتاة ليل.. تنظر لــك وأنت لم تعزف موسيقاك منذ أعوام.. تراك وأنت – أيها الحلم الكبير وفارس الأحلام – بائع بسيط.. بلا مستقبل.. ولا حياة..

نظر له كمن يرجوه الرحمة، ولكن نادر أكمل دون رحمة:

– كانت ستفعل شيئان لا ثالث لهما...

وأكمل القذف الناري:

– لبكت.. وتمنت أن تموت ثانية على أن ترى حبيبها هكذا...

واقترب من طه مكملًا:

– أو بصقت على وجهك، وتمنت أنها ما وقعت في حبك أبدًا...

وصمت...

وصمتت الدنيا معه...

–يا نادر.. حرام عليك...

قالها الطيب.. ولم يعره أحد التفاتًا...

وأخيرًا قال طه:

– أعلم هذا...

قالها بلهجة جعلت قلب نادر يخفق...

قالها كأنه سيوشك على البكاء...

أكمل طه بلهجته الحزينة

– أعلم ذلك جيدًا يا نادر.. أعلمه كل يوم وكل ثانية وكل لحظة...

وأكمل بابتسامته الحزينة التي اعتادها:

– لكنك طوال حياتك لم تفقد عزيزًا.. أشجان هي من جعلت مني فنانًا.. هي التي خلقت في حماسي وسخريتي وجنوني.. أشجان كانت ذلك النجم الذي لا يسعني إلا النظر له من الأرض منبهرًا...

ونظر لنادر مكملًا:

– أحببتها وكفى.. لا أريد أن أشرح شيئًا.. أحببتها وكفى...

وأكمل بعد صمت لم يطل:

– وذهبت.. ذهبت بعد سلسة عذاب متصلة...

وأكمل ودموع عينيه المتجمدة تنطق رغم بسمته الجميلة:

– ما لا تعلمه يا نادر أني حاولت...

– حاولت؟

– أجل حاولت.. حاولت أن أعود لنفسي.. أنت لم تعش عمرك كله مأساة أن تحاول أن تبتسم.. ولا تستطيع.. أن تحاول تحريك أصابعك على آلة عمرك كله تحترفها، ولا تتحرك أصابعك.. تتيبس.. ترفض إطاعة أوامرك، كأنما هي – أصابعي – عبيد ما إن مات

ملكهم حتى تمردوا على كل شيء.. هي كانت ملكة أصابعي.. ملكة كل شعرة بجسدي...

ونظر لعيني نادر مباشرة.. وأكمل:

– وذهبت.. وطوال شهر كامل أحاول وأفشل.. وأحاول وأفشل.. ثم أدركت الحقيقة المؤكدة.. أنها كانت من تفعل كل شيء بي.. هي روحي وقلبي.. وعندما ذهبت.. مت أنا.. بتلك البساطة.. من لحظتها قررت ألا أمس شيئًا.. لا أورج ولا قلم ولا أي شيء.. وأدركت شيئًا آخر.. أني كما انتهيت.. فشلت.

وصمت طه وقلبه يدمي ألمًا...

قال في لحظة غضب ما لم يقله طوال سبعة عشر عامًا...

كل يوم يحمل هذا الألم داخله...

قال نادر بخفوت:

– طه.. أنت لم تقل شيئًا كهذا من قبل...

قال طه وهو ينهض:

– لم أرد أن أشغلك بهمومي...

وقبل أن يقول أحدهما شيء قال مبتسمًا:

– عن أذنكم.. سأذهب قليلًا...

قال الطيب له ببساطته:

– يا رجل لا تذهب وأكمل جلوسك...

– نصف ساعة وسأقابلكم في بيتك بإذن الله.

قالها طه وانصرف خلفه نظرات نادر...

قال الطيب بلوم طفيف:

– ما كان من حقك أن تنكأ الجرح هكذا...

قال نادر بحزن:

– كان يجب أن أقسو عليه.. مللنا من المهاودة.. كان يجب أن يفيق..

وأكمل وهو يرى طه ينطلق بدراجته البخارية:

– طه عبقرية.. لا يجب أن نتركه يدفن نفسه هباء...

– نسيت شيئا مهمًّا..

قالها الطيب ببساطة وأكمل:

– طوال عمر طه عنيد.. وخيالي.. وطائر.. فهو لا يكون عبقرية – كما تقول – إلا في حالة واحدة.. عندما يريد هو.. لا عندما نريد نحن أن يكون.. وعندك خبرة سنين عشنا فيها معًا.. فقط عندما يريد هو أن يكون.. تذكر هذا جيدًا...

نظر له نادر وبداخله فكرة ما...

فكرة قد تقلب كيان كل شيء...

كل شيء...

***

–لبصقت على وجهك، وتمنت أنها ما وقعت في حبك أبدًا...

يا لها من كلمة يا نادر...

لو كنت ضربتني بالرصاص لكان هذا أقل ألمًا...

ماذا فعلت بنفسك يا طه؟...

نظر حوله ليجد الجميع في السكر يرزحون.. والراقصة – التي كانت أكثرهم سكرًا – تفعل شيئًا ما يشبه الرقص الشرقي.. الضحكات الماجنة تملأ المكان...

هل هذا حقًا هو الجو الذي ستستريح فيه؟...

اهرب...

اهرب كما تعودت الهرب...

اهرب من مشاعرك، ومن مخاوفك...

اهرب من ذكراها.. وألم ذكرياتها...

اهرب...

***

–هيا يا غادة.. ماذا تفعلين في الفصل حتى الآن؟!.

– من هذه يا غادة؟

– ألا تعرفها؟.. سأعرفك بها.. تعالي يا أشجان..

وتدخل الفصل...

وكان أول لقاء...

– هذا طه.. من أعز أصدقائي.. وهذه...

قال طه ببسمته الودودة:

– أشجان.. سمعتك تناديها...

وتتلاقى العينان مباشرة...

وعرف الاثنان أن كلا منهما سيكون له دور في حياة الآخر...

***

اهرب يا طه.. لا تتذكر. .

***

- لا أدري.. لكني أستريح لك بشدة.. أشعر أنني أستطيع أن أحكي لك كل شيء...

قالتها أشجان له وهما يتكلمان يومًا...

ورد طه وهو يتحرك بمشاعره كعادته:

- لنكن أصدقاء.. بل وأعز أصدقاء...

- حسنًا.. ووعد أنني لن أخفي عليك شيئًا..

- صدقيني.. أشعر بأنك خلقت لأحكي لكِ كل شيء...

***

لا يا طه.. ابتعد.. اهرب...

- كم أنت بعيد يا طه..

- بعيد؟

- مهما اقتربت منك لا أفهمك..

- يكفيني أني أفهمك...

قالت فجأة بحماس:

- الغريب...

– ماذا تعنين؟!

– سأطلق عليك طه الغريب.. ألم تكن تبحث عن لقب بعد عبقرينو والطيب.. الغريب.. هذا هو أنسب اسم لك...

– الغريب بمعنى المغترب؟.. أم الشيء العجيب؟

– لا.. بمعنى البعيد.. البعيد عن الواقع.. البعيد عن كل شيء...

***

لماذا لا تؤثر الخمر اللعينة بك.. اخرس أيها العقل.. اخرس..

***

– أشجان.. أنا لم أعد أستطيع أن أكمل تلك التمثيلية..

– ماذا تعني؟

– أحبك.. منذ وقعت عيناي عليك وأنا أحبك..

– لكن هذا مستحيل.. إننا أصغر بكثير من أن نحب..

– ومن قال إن للحب عمرًا؟

– لكن...

– سأسألك سؤالًا صريحًا.. هل تؤمنين أن في الوجود من يصلح لك غيري؟

– ل.. لا..

– وأنا واثق من هذا أيضًا...

– والعقل.. ستكون نهايتنا سوداء...

– دعينا لا نفكر في النهاية.. ثم إن العقل يقول لنا: جُنُّوا.. وأحبوا بعضًا...

– أنت أيها المتشائم تقول هذا؟

– أحبك...

– أ.. أ.. أحبك

***

– أترى القمر يا طه؟

– أتظنين أنني أعمى حتى لا أراه؟

– لا تسخر.. أنا أعشق القمر.. أعشق كل شيء فيه.. وأحفظ كل يوم له...

ونظرت لعينيه التي تذوب فيهما:

– أتعلم لماذا؟

– لماذا؟

– لأنه يذكرني بك.. بعيد.. وحيد.. يضيء لنا السماء، وبداخله ظلام شديد....

– لأول مرة يقال على الرجل أنه القمر.. إذا كنت قمرًا.. فما أنت؟

قالت ببسمتها العاشقة:

– أنا حبيبتك.. يكفيني هذا...

– أحبك...

– أحبك...

***

كفاك عذابًا لروحك.. انسَ يا طه.. انسَ..

***

– دنياي...

– طه.. لا تكن مجنونًا...

– أنت دنياي.. سأسميك دنياي...

– هذه كلمة واسعة جدًّا علي.. أتريد أن تقول إن كل حياتــك وموسيقاك وألحانك وأصدقائك وعائلتك و...

– كل هذا أنت.. وأنا لا أمزح.. كل هذا أنت.. وإليك..

***

–هذا جنون.. أنت مسلم وهي مسيحية.. كيف تستمران؟...

–أنتما هالكان لا محالة...

–صدقني يا طه أنا صديقك.. النهاية ستكون مأساة....

–حب!! أي حب هذا الذي ستكون نهايته مستحيلة؟.

–لا تعيشا في دور روميو وجوليت.. فللأسف.. لن يكون الموت نهايتكما.

***

– لا بد أن نترك بعضنا يا طه...

***

–لا!!!!!!!!!!!!!!!!....

صرخ بها طه في ذلك الملهى الليلي وهو يقف...

نظر له الجميع لحظة ثم لم يلبثوا أن تجاهلوا الأمر تمامًا...

***

– لم أعد أحتمل هذا الضغط.. أهلي والناس وديني.. يجب أن أترك لنفسي فرصة كي أنساك.. حتى عندما نفترق لا يكون فراقًا مؤلمًا..

– لكنك بهذا تقتلينني...

– أنت تعلم أني أحبك.. لكن...

***

كفى...

كفى يا عقل كفى...

نظر حوله بنظرة شاردة والعرق يتفصد من جبينه، ثم وقعت عيناه على واحدة يعلم ما هي جيدًا...

ذهب لها وأمسك ذراعها بقوة قائلًا:

– أريدك...

انتفضت هي لحظة من المفاجأة، ثم ضحكت قائلة:

– أنت تأمرني يا طه.. أنا لا أرفض لك طلبًا أبدًا...

جذب يدها قائلًا بعصبية من قسوة ذكرياته:

– هيا...

و...

–ها هي ليلة أخرى قد مضت...

سعادة لحظية تمر بها ثم تعود ثانية لفكرك الذي يخنقك....

لكنك استطعت أن تهرب...

كل ليلة تعذبك الذكريات...

لكن هذه الليلة كانت أقسى ليلة...

همس فجأة وهو يبتسم:

- أشجان...

وأغمض عينيه...

أغمضها في راحة.. كأنما بعث اسمها الراحة في أوصاله...

وبدا للحظة أنه يحلم بها...

والدليل.. كلمة هامسة نطق بها من وسط شروده...

كلمة...

أحبك...

***

-فللأسف.. لن يكون الموت نهايتكما....

- 3 -

-تفضل يا نادر.. البيت بيتك....

دخل نادر البيت في شيء من التردد...

لا يعرف لماذا تعامله سما بهذا الود الشديد..

أين التحفظ والصرامة الماضية...

لكنها هكذا أفضل كثيرًا...

قالت مبتسمة:

- شرفتنا.. ضيفتي كانت تنتظرك على أحر من الجمر...

كانت هي قد دعته على الغذاء قبلًا.. لكنه كان مكتئبًا.. فقد اختفى طه لمدة ثلاثة أيام كاملة وليس له أثر.. وقد حاول الطيب أن يطمئنه قائلًا إن طه فعلها مرارًا أن يغيب فجأة.. لكن بال نادر لم يسترح.. خصوصا وهو يشعر بتأنيب ضمير.. كان أقسى من اللازم معه...

-ما الذي يشغل عقلك عني؟....

أفاق من أفكاره على صوتها، فقال ببسمة مرتبكة:

- لا شيء.. كنت أتأمل ورعة البيت...

ابتسمت ليشرق وجهها:

- حقًا؟.. أنا من صممت ديكوره...

نظر لها منبهرًا وهو يقول:

- رائع.. طوال عمرك فنانة رائعة..

- هذا من ذوقك...

ساد الصمت لحظة، ثم همت سما بسؤاله عن شيء ما، لكن لحظتها دخلت عليهم امرأة رقيقة.. أقل ما يقال عنها إنها رائعة...

وقف نادر تلقائيًا وهو ينظر لها محييًا، كانت قصيرة قليلًا، شعرها بني لامع، أنفها دقيقة وشفتاها خمريتان أدق من أنفها...

وعينان.. خضراء واسعة جميلة...

قال بلهجة ظهر الانبهار فيها واضحًا:

- كيف هي؟

ثم استدرك قوله عندما وجد النظرات المتسائلة:

- أ.. أقصد من هي؟!.. أنت لم تعرفينا يا سما...

تبادلت الفتاتان نظرة واحدة، ثم قالت الفتاة بصوت ملائكي وهي تسلم عليه:

- فتحية.. فتحية عبد السلام...

ويا له من اسم أحبط هذا الجمال تمامًا..

قال مبتسمًا:

- نادر عبـــقــ.. عبد الرحيم..

وجلسوا يتبادلان الأحاديث المعتادة.. حتى انتهى الغداء.. وأكملوا جلستهم.. هنا تذكرت سما السؤال الذي ودت سؤاله:

- صحيح يا نادر.. أما زلت تلتقي بأحد من الشلة؟

ضحك نادر وهو يقول:

- ألتقي بأحد؟.. إنهم ما زالوا ممسكين برقبتي حتى الآن.. الطيب وطه.. كلهم..

ولم يلحظ ارتجاف يد فتحية...

إنما لاحظ اهتمام سما وهي تسأل:

- كيف هم؟.. ما أخبارهم الآن؟

وضحكت مكملة:

- أما زالت فيهم طباع ثانوية عامة؟

ضحك بشدة قائلًا:

- الطيب تزوج غادة كما تعلمين.. إنك لم تحضري الفرح للظروف.. ما زال طيبًا ساذجًا.. يصدق أي شيء.. ويحب كل شيء.. قد صقلته الأيام قليلًا.. لكن الطيبة شيء في قلبه كالدم.. لا يتغير أبدًا...

وصمت كأنما انتهى من الكلام، ولم يلحظ نظرة الفتاة المتلهفة لأن يكمل، وقالت سما بصوت نجحت في أن تجعله طبيعيًّا رغم ما يعتمل داخلها من فضول:

- وطه الغريب.. أما زال مجنونًا لا يضع حدًّا لأي شيء؟!

قال نادر بضيق حقيقي:

– هذا الشخص الذي تتكلمين عنه مات منذ سنين..

ولأول مرة تنطق الفتاة فجأة قائلة بفزع شديد:

– ماذا؟!

نطقتها بلهفة وجزع أثارت شكوك نادر بدرجة كبيرة، وهو يشك في شيء يراه الآن فقط رغم بعده تمامًا، قال مفسرًا وقد ركز نظرته على الفتاة:

– لم يمت بالمعنى الحرفي...

ثم لم يلبث أن عاد بظهره إلى الوراء مستطردًا بضيقه:

– طه الذي عرفته وصادقته لم يعد موجودًا.. أصبح طه الغريب حقًّا غريبًا عني وعن الدنيا.. أصبحت دنياه الوحيدة هي الذكريات والماضي.. ولأول مرة أعلم بعد سبعة عشر عامًا.. أن طه بلا أشجان.. كتاب بلا كلمات...

سألت سما باهتمام:

– أتعني أنه ما زال يتذكر أشجان؟.. ألم يحب؟.. ألم ينجح في حياته الفنية وينسى أشجان قليلًا؟

قال نادر بسخرية مريرة:

– أي حياة فنية.. طه الآن موظف بسيط.. ومن ناحية الحب، فقد أصبح يحب واحدة كل ليلة.. لكن عند النهار.. يعطيها نقودها وينصرف كل لسبيله.. وأصبح مدمنًا للخمر.. أصبح ذلك الشخص الذي ترينه في التلفاز يسكر ويعربد..

بصوت خافت مهزوز قالت الفتاة بشرود:

– كل هذا بسببي؟!

نظر لها نادر مندهشًا، في حين نظرت له الفتاة ببسمة حزينة:

– لماذا تنظر لي هكذا يا عبقرينو؟

نهض من مكانه وقد أصبح شكه يقينًا، وتساءل:

– من أنت؟!

قالت ببسمتها المريرة، ودموع رقيقة تهبط من عينيها:

– ألم تعرفني بعد؟!.. ألهذه الدرجة تغيرت؟!

صمت وهو ينظر لها مذهولًا.. في حين أكملت هي بعينيها الباكية:

– أنا حبيبته...

وقبل أن ينطق حرفًا.. قالت:

– أنا أشجان...

***

–أبعدته عن طريقي وتركته كي أستريح من كل شيء.. من القلق.. ومن أهلي.. والخوف من كل خطوة أخطوها معه.. لأترك انشغال العقل وتأنيب الضمير.. أتركه لأستريح تمامًا....

وقد فعلت.. وجرحته جرحًا أكبر من أن يسامحني عليه.. وحاولت المضي بعمري.. لكني عانيت من فقدانه...

كان هو أحن علي من النسيم إذا هفا.. كان رائعًا في كل شيء.. كان يحبني حقًا كما أحببته.. لكن الفرق أنه – كعادته اللامبالية – أحبني أكثر من مستقبله ومن حياته.. لذا فقد ظل يحبني.. وكنا نتكلم

بين حين وحين كأصدقاء...لكني أعلم من نبرة صوته أنه ما زال يعشقني.. وأنا لا أريد أن أتذكر عشقي وأريد نسيانه...

لكن أهم شيء أنه كان يفهمني أكثر من أي شخص آخر...

أتعلم؟! عندما تفعل شيئًا صحيحًا مئة بالمائة.. وتتصرف فيه التصرف الصحيح تمامًا، ومع ذلك تشعر بأنك أخطأت خطأ كبيرًا في حق نفسك...

مأساتي معه أنني كنت أريد تركه ونسيانه بأية طريقة، لكني خائفة على نفسي من الحياة بدونه.. فقد كنت لمدة ثلاث سنين كاملة وهو يفعل لي كل شيء.. يحميني وينصحني ويحتويني، ولم يعرف أحد في العالم كيف يفعل هذا.. فكيف لي أن أتركه؟

لكن الشيء الوحيد الصحيح هو تركه...

وجاءت من عند ربنا.. لقد وجد أبي وأخي فرصة عمل كبيرة في أمريكا..

ولم يطل التفكير بأبي، وفي غضون شهرين تقريبًا كنا نستعد للسفر...

وكدت أجن.. كيف أترك كل شيء هنا؟.. ولكن لا مجال للنقاش...

وهنا أدركت شيئًا..

أنني أحبه حقًا...

كان همي الوحيد أن أراه وأقول له أحبك قبل الرحيل...

كان همي الوحيد هو رؤية عينيه الحانية وهو يهمس بأذني بكلمة...

كلمة جعلت حياتي كلها ليست حياة...

وإنما حياتي معه هي الحياة الوحيدة المعترف بها...

وجننت.. لحظتها جننت، كيف أتركه؟.. كيف أهجره؟.. ســـ..

سأفتقده حقًا....

وحدث ما حدث وتعلمونه جميعًا...

فرغم أنني جرحته مرتين.. رغم هذا.. فعل المستحيل كي يأتي إلى المطار...

وعرفت من سما الآن سبب تأخره.. ذلك الحادث أمام المطار...

وعرفت سبب رؤيتي له وهو مغطى بالدماء.. ينظر لي نظرة لــن أنساها عمري كله....

نظرة تقول لي.. إنه ملكي للأبد...

وسافرت...

وهناك عشت حياتي.. جامعة.. حياة جديدة.. تأقلمت على الحياة دونه...

وقرروا أن يزوجوني...

وعندما جاءت سيرة الزواج تذكرته وحده...

طه الغريب...

واكتشفت أني أحبه أكثر من أي وقت مضى...

أنني – ببساطة – لا أتصور نفسي مع غيره...

لكني لم أرفض الزواج...

لكني فعلت ما شعرت به لحظتها...

لقد بعثت لطه خطابًا.. أخبره أنني أحببته.. ولا زلت أحبه...

وأنني سأنتحر.. لأني أحبه ولن يزوجوني أحد غيره...

بل إنني أخبرته بأنني تناولت السم وأنا أكتب الخطاب...

أرسلت له ما حدث لروحي.. وليس لجسدي...

وقلت إنه سينسى.. وسيعيش بعدي حياة سعيدة...

وبعد خمسة عشر عامًا.. مات زوجي.. وأنا لم أنسه حتى الآن.. فانتهزت الفرصة وجئت لأقيم هنا.. وها أنا ذا أبحث عنه منذ سنتين...

***

-أنت مريضة....

قالها نادر بعصبية شديدة.. وأكمل:

– أنت دمرت حياة إنسان كانت مفعمة بالأمل.. بخطاب زائف!

– لم أكن أعلم أنه...

– حجة البليد.. كنت تعيشين حياتك مع زوجك بلا مشاكل، وقلب آخر يذبل كل يوم ويبكي عليك، ولا تفكرين فيه إطلاقًا.. سبعة عشر عامًا.. تركتيه وهو في بداية شبابه وعدت بعد النهاية بقليل.. لقد دمر مستقبله تمامًا من أجلك...

انفجرت أشجان بالبكاء فجأة وقالت:

– أنا أحبه حقًّا.. لا تظلمني...

ذهبت سما لها سريعًا، وربتت على كتفيها قائلة:

– رحماك بها يا نادر.. إنها في عذاب متواصل منذ أن عادت...

صاح نادر بعصبية:

– لماذا يتهمني الجميع بالقسوة؟!.. تفعلون ما تفعلون بأنفسكم وتكرهوا من يذكركم.

ساد الصمت...

يا لها من أيام...

قالت أشجان بصوت باكٍ:

– أنا مستعدة لفعل أي شيء من أجله.. سأجعله ينساني تمامًا...

نظر لها نادر صامتًا فقالت بأمل:

– عندي خطة أحضّرها منذ فترة.. أنت طبعا تلاحظ كم تغيرت ملامحي.. أنت لم تعرفني..

قال نادر وقد أثارت اهتمامه:

– ماذا تريدين أن تقولي؟

تألقت عيناها بشدة وهي تقول:

– سأعود له.. لأجعله ينساني...

وأكملت خطتها...

***

أحمد سالم..!

- 4 -

-هيا يا نغم.. ستتأخرين...

تأففت الفتاة الجالسة على الفراش.. ثم لم تلبث أن أكملت تلك القصة التي في يدها وهي تقرأ ما بها بتركيز شديد...

وانغمست فيها حتى إنها لم تنتبه إلى أختها الصغيرة التي تسللت من الخلف ووقفت تنظر لما تقرؤه ، ثم صاحت بغتة:

– خرب الله ديار تلك القصة.. أتقرئين همسة عابرة ثانية؟.. إنها المرة المائة يا نغم...

انتفضت نغم على صوت أختها، ثم ضربتها بالقصة قائلة:

– من هذا الذي أسماك نسمة.. كان يقصد عواصف.. سامحك الله يا أبي...

قالت نسمة ضاحكة:

– دعك من هذا.. لماذا همسة عابرة هي الوحيدة التي قرأتها أكثر من مرة.. هل أخيرًا اقتنعت بحسين عبد المجيد الذي أعشقه، وتكرهينه أنت بشدة.. أغيرت رأيك مثلًا؟!

صاحت باستنكار:

– أنا لا أحب حسين عبد المجيد.. إنه كاتب تافه سطحي.. يعتمد على تفاهة قرائه.

بإشارة موجزة أشارت نسمة إلى قصة همسة عابرة كأنها تقــول: أنت من القراء التافهين.. فقالت نغم وهي تنظر للقصة بلهجة حالمة:

– لكن هذه قصة أخرى.. فطوال عمر حسين هــذا يعتمــد في كتابته على الإثارة واللمز والغمز.. أما هذه القصة فهــي تخاطــب المشاعر.. تعبث بقلبك.. تطير بك في السماء، وتهبط بك للأرض.. قصة كاملة.. حبكة وحوار وموضوع وأسلوب كتابة..

صاحت بها أختها وقالت كأنما تخاطب مجنونة:

– يا أغبى مخلوقات الأرض.. إنه نفس الكااااتب...

قالت وهي تتحرك بسرعة لترتدي حذاءها:

– لا أعتقد.. أعتقد أنه سرقها من شخص ما.. أو أن حالة عبقرية هبطت عليه فجأة...

ثم لكمت أختها في كتفها قائلة:

– ثم لا تشتميني ثانية..

وأخذت حقيبتها من على المكتب، وقبلت أختها قائلة:

–وداعًا.

وانطلقت بحماس صائحة:

– وداعًا يا أمي.. ادعي لي.

وخرج وراءها صوت أمها الدافئ:

– وفقك الله يا بنيتي...

نزلت على عجل وحماس...

كانت ذاهبة إلى أول لقاء عمل لها بعد تخرجها بعام، فكانت شعلة نشاط، وهي تركب سيارة الأجرة وأخذت تفكر كيف ستبهر مديرها و.. و..

توقفت سيارة الأجرة أمام تلك البناية الضخمة.. وصعدت بخطوات متواثبة تسبق ظلها.. دخلت الشركة وذهبت لموظف الاستقبال وقالت:

- أنا المتقدمة للوظيفة الخالية...

قال الموظف باقتضاب:

- الدور الأول.. المهندس أحمد محسن...

ذهبت حيث قيل لها.. ووجدت هناك اثنين غيرها ينتظران الوظيفة، مما زادها تحديًا...

كانت جميلة، لكنها لا توضّح هذا إطلاقًا.. نظارة رقيقة عملية.. شعر قصير جدًّا.. بيضاء كما أظهرت حمرة وجنتيها الصريحة.. لا توجد ذرة زينة في وجهها.. وجسد رائع.. لكنها - كذلك - لا تظهره.. ترتدي ملابس أنيقة لكن واسعة..

بعد فترة نودي اسمها.. فدخلت الحجرة بخطى واثقة.. كانت حجرة واسعة، وأمامها مباشرة مكتب يجلس عليه رجل وقور..

ابتسم لها الرجل وقال:

- تفضلي.. يا آنسه نغم...

جلست والرجل يقول:

– أنا المهندس أحمد محسن.. سأجري معك المقابلـــة.. عـــرِّفيني بنفسك..

قالت بصوت جاد:

– نغم عادل.. خريجة كلية هندسة عين شمس قـــسم عمـــارة.. حاصلة على امتياز مع مرتبة الشرف.. وأعمل الآن على الماجستير.

ارتفع حاجباه إعجابًا وقال:

– إن إمكانياتك تؤهلك لمهنة أعلى من هذه.. لم اخترت هـــذه الوظيفة؟

قالت بسرعة كأنما تعرف أنها ستسأل هذا السؤال:

– مؤهلاتي تجعلني أعمل في مهنة إدارية محترمة، لكني قصدت هذه الشركة بالذات – ولا تؤاخذني على صراحتي – لأنها لم تحقق النجاح الكافي.. كما أن مهنتي فيها ستجعلني أجتهد وأبدع و أفكر وأتعب.. أنا لا أعمل من أجل النقود، وإنما أعمل من أجل نفسي...

انتفضت على صوت قوي يقول مترددًا:

– آسف على التأخير.. لقد جئت متأخرًا لظـــروف، وقـــال لي الساعي أن اسمي فات من اللائحة..

قال أحمد ناظرًا له بصرامة:

– ليست مشكلتي يا أستاذ...

لم تنظر خلفها لتراه، لكنه هو من تقدم ووقف بجانب المكتب وهو يعطي بطاقة ما لأحمد الذي نظر فيها مدققًا، ثم ظهرت البشاشة على وجهه وهو يقول:

– أهلًا أهلًا يا أستاذ أحمد.. ما أخبارك؟.. تفضل.. المقابلة لم يفت ميعادها...

ارتفع حاجبا نغم مندهشة، ثم انقلبت غضبًا حينما قال لها أحمد محسن:

– بعد إذنك.. ستنتظرين في الخارج قليلًا.

صمتت مندهشة وحانقة، وقد أدركت أنه – الرجل – له واسطة عالية.. فأصابها إحباط مفاجئ وهمت بالوقوف منصرفة، ثم قالت بغتة وهي تعقد حاجبيها:

– لا...

نظر لها المهندس أحمد مندهشًا، وأحمد الآخر مهتمًّا، في حين أكملت هي بعناد:

– لن أنصرف.. لقد جئت في معادي محترمة الشركة.. ولن أسمح بأن أخرج بسبب إنسان غير محترم.. لمواعيد الشركة...

صمتت في الجملة الأخيرة حتى توضح معناها وأكملتها كي لا تقع في الخطأ...

قال المهندس أحمد بصرامة:

– لكني أريد منك الانصراف.. ولا تنسي أن تصرفك هذا يمكن أن يؤذي فرصتك في العمل هنا...

قالت بصرامة وقد شعرت بأنها مظلومة:

– لست أنت من تمنحني فرصة العمل.. ربنا هو الذي يرزق البشر.. كما أن مؤهلاتي أيضًا هي التي تحدد.. ولو أنك تريد إقصائي لأني أغضبتك، أو من أجل شخص أسوأ مني يحمل بطاقة، فأعلم أنها

خسارتك أنت.. لأن – ذلك الشخص – أتى بواسطة؛ لأن مؤهلاته لا تسمح له أن يجد عملًا وحده...

وجذبت حقيبتها قائلة بحزم:

– وأنا آسفة إذا كان ما قاته قد ضايقك...

وهمت بالانصراف، لولا أن صعد ذلك الصوت القـوي قائلًا بلهجة آمرة:

– انتظري...

التفتت له بحدة، ثم أدركت أنه ليس أحمد محسن بل ذلك الشاب.. فقالت بجفاء:

– ماذا تريد؟!

لم يرد عليها وإنما نظر إلى أحمد محسن، وقال بنفس اللهجة الآمرة:

– أريد أن تلغي إعلان الجرائد.. وتنهي المقابلات...

وابتسم وهو ينظر لنغم المذهولة:

– لقد شغلت الوظيفة...

وتقدم منها قائلًا:

– أحمد سالم.. مديرك مباشرة.. لست مدير الشركة، أنا مديرك أنت في قسم العمارة..

نظرت نغم مذهولة، ثم تمتمت:

– لـ.. لكن ما.. ما الذي...

قال بلهجة عملية لا هي صارمة ولا ودودة:

- اختبار بسيط.. ونجحت أنت فيه بجدارة...

ثم قال متعجلًا:

- هيا.. كفانا إضاعة للوقت.. سأريك مكتبنا...

وذهبت خلفه...

لا تدري لماذا يخفق قلبها هكذا...

فجأة...

***

لم تنم تلك الليلة...

ما الذي فعله بها؟...

تشعر بداخلها أنها تريد أن تراه...

كان عمليًّا.. لا يبتسم ولا يضحك.. جادًّا جدًّا.. وصارم...

لكن عينيه...

جذبتها عينيه لدرجة أنها لم تسمع كلمة واحدة من التي قالها وهو يريها مكتبها، ولم تعرف إلا شيئًا واحدًا، إنهما في غرفة واحدة كبيرة.. وهو ليس مديرها، إنما يعتبر رتبة أعلى منها قليلًا.. لكنهما في غرفة واحدة ومكتبين منفصلين...

وأي شيء غير هذا لم تسمعه...

كانت تحدق في عينيه...

تشعر أنهما عالم خاص به.. يداري بها الكثير...

ولم تستطع النوم لحظة...

كل هذا من مقابلة يوم واحد...

لعن الله تلك العينين...

حنين

— 5 —

أخيرًا تعود...

أربعة أيام لم يعلم أحد عنك شيئًا...

لكن هل بغيابك شفيت حقًّا؟!

ما قاله نادر لك آذاك.. ولن تشفى منه أبدًا...

فتح باب الشقة.. وأشعل النور.. و...

–ما كل هذا التأخير يا عم طه....

انتفض جسده وهو يلتفت إلى مصدر الصوت...

وفجأة.. ثارت عاصفتان...

عاصفة داخل أشجان لأنها كانت تفتقده جدًّا...

عينيه الحانيتين.. بسمته التي عشقتها...

كم افتقدته...

سبعة عشر عامًا لم تر ه.. ودائمًا ما تفكر فيه...

وها هو أمامها...

بقلبه...

بحبه...

كيف تقاوم أن تنهض راكضة وتلقي نفسها بين ذراعيه القويتين...

كيف تقاوم أن تبكي بين يديه قائلة له: أحبك يا أغلى من النفس.. سامحني...

أما هو فقد خفق قلبه خوفًا...

عيناها تقتله...

إنها عيناها...

صورة طبق الأصل من عيني أشجان...

لقد بحث وسط آلاف العيون...

ولم يجد عينين أشبه بعينيها إلا هذه...

أجل هذه خضراء.. وملامحها مختلفة...

لكنها هي...

إنه يحفظ كل ذرة في عينيها...

حتى عدد الرموش...

وخفق قلبه شوقًا...

– من أنت؟!

نطق بها بصوت خفيض لكن قوي.. أعادها إلى دورها فابتسمت ابتسامة جريئة وقالت:

– أنا قدرك...

نظر لها وهو يبتسم ابتسامة ساخرة فأكملت بسرعة:

- تفضل واجلس.. سأتحدث معك في موضوع مهم...

صوهّا...

قال ببسمة ساخرة:

- لماذا أشعر بأن هذا بيتك؟!

- اجلس...

قالتها بجدية.. فجلس وهو ينظر لها هازئًا، وقلبه يدوي منفجرًا.. كم تشبهها...

ونظرت له هي وعينيه تقتلاها شوقًا له...

قالت وهي تجلس أمامه:

- أنا أعلم كل شيء عنك.. لقد استأجرني نادر...

انعقد حاجباه وقال متسائلًا:

- أستأجرك؟.. لماذا؟!

صمتت لحظة،ثم قالت بهدوء:

- لأنسيك حبيبتك..

صمت لحظة ناظرًا لها، ثم قال باسمًا:

- أجَّر لي عاهرة لتنسيني حبيبتي.. يا للصداقة!

صفعتها كلمته.. لكنه لم يرحمها وقال بغضب هذه المرة:

– كيف يجرؤ؟!.. ومن أنت لتنسيني إياها؟!.. أيظن أن كل تلك السنين ستذهب أمام واحدة.. لا تعرف عن الحب شيئًا إلا أنه متعة رخيصة؟!

وهض قائلًا بهدوء:

– شرفت يا آنسة...

يا إلهي.. كم أصبح قاسيًا لا يرحم...

حنان قلبه ذهب...

لكن لا...

لا..

–لا...

قالتها بقوة وهي تنهض مكملة:

– أنت لا تملك الاختيار...

أدهشه انفجارها، وقد توقع أنه جرحها تمامًا، في حين أكملت هي بصوتها المرتفع:

– أنت لا تملك الاختيار.. ثم ما دمت واثقًا هكذا.. ضع نفسك في اختبار حقيقي ولو لمرة واحدة في حياتك.. لتثبت لنفسك أنك فعلًا مخلصًا لها...

وقالت بقوة إنسانة تنقذ حبيبها من هاوية:

– إنني أتحداك.. أتحداك أنني سأستطيع أن أنسيك إياها.. ولتتحداني أنت بأنك لن تنساها...

قال وقد أعجبته فكرة التحدي تلك:

- والجائزة عندما تفوزين؟!

قالت كأنما أعدت الصفقة مسبقًا:

- أثبت لنفسي أنك استسلمت لي كأي رجل.. هذا يكفيني...

- وإذا فزت أنا.. فما جائزتي؟

نظرت له واقتربت منه قائلة:

- سأعطيك نفسي.. دون أدنى مقابل...

قال ساخرًا:

- بمعنى أني سأخسر في الحالتين...

لكمته في كتفه وهي تقاوم احتضانه بشدة، وقالت ضاحكة:

- أنت لا تعرف إذن ما ستخسره...

كم تكره ذلك الدور الذي تلعبه.. ولكنها مضطرة.. فطه لن يفعل شيئًا لو وجد بنتًا طاهرة بريئة.. يجب التحدي حتى تثير استفزازه.. وتشعل فيه طه القديم العنيد.. فلم يكن هناك بد من أن تكون تلك الشخصية السيئة.. حتى تجذب اهتمامه.

فجأة.. جذبها من يدها، ليلصق جسده بها، وقبلها في رقبتها قائلًا:

- أريني إذن كيف ستنسيني إياها...

وأحاطها بذراعيه واحتضنها بشدة.. ثم قبلها...

حدث كل هذا بسرعة وهي شاردة.. فانتفضت على قبلته واتسعت عيناها ذعرًا.. وحاولت التملص بلا فائدة وهي تقول:

- اتركني.. اتركني...

أدهشها صوتها الذي صعد هامسًا، وقلبها الذي يخفق بشدة، وأنها تذوب مستسلمة...

ما أروع قبلته...

قالت بيأس وهي تذوب:

– أرجوك.. اتركني...

شعرت بيديه تحتويها.. وصوت أنفاسه.. وشفتيه...

واستسلمت...

همست وهي تحتضنه إليها تعلن استسلامها:

– أحبــك...

فجأة.. توقف...

توقف وهو ينظر لها مندهشًا..

والتقت عيناهما...

دفعها بعيدًا عنه وتراجع للوراء وقال:

– من أنت؟

قالت وهي تتنهد من قلبها:

– ماذا تقصد؟

قال وهو ينظر لها:

– أنت لست منهم.. أنت لست عا.. فتاة ليل..

صمتت ودموع في عينيها.. لقد كانت في أصعب مشاعر منــذ لحظة واحدة، ضغطت على أعصابها بشدة وقالت:

- كيف عرفت..؟

تبدّلت نظرته فجأة وقال بهدوء حانٍ:

- لا تبكي.. أرجوك...

نظرت له مندهشة، فتقدم هو منها ليمسح دمعتها وقال:

- أنا آسف...

وخفق قلبها بشدة...

ها هو طه الغريب الذي تعرفه..

عينيه عادتا إليه...

أنت لم تمت كما تخيل نادر.. ها أنت ذا حي...

قال بصوت دافئ مجيبًا على سؤالها:

- عرفت من شيء واحد.. لا توجد فتاة ليل واحدة.. تقول أحبك للرجل الذي معها...

ونظر لعينيها وقال بنفس الصوت الدافئ:

- لماذا قلت تلك الكلمة.. إن كل قوى الدنيا لم تكن لتوقفني.. لكن هذه الكلمةَ تفعل!

قالت هي مكملة تمثيلها:

- إنها أول مرة لي.. أنا جعلت الكثيرين يقعون في شباكي وتركتهم.. لكني أول مرة أراهن على نفسي.. أو أعطي نفسي لأحد...

قرص خدها قائلًا:

- تعلّمي المرة القادمة ألا تقولي أحبك وأنت تفعلين هذا...

ضحكت.. فما زال يستطيع إضحاكها مهما شعرت بالحزن...

جلس وهو ينظر لها، فقالت ببسمة واثقة:

-أنا حنين.. ألم تلاحظ أنك لم تسأل عن اسمي حتى الآن؟!

قال وهو يريح ظهره على مقعده:

- عادة أسأل عن الاسم بعد الليلة.. ليس قبلها...

طرقت الحديد وهو ساخن قائلة:

- إنني لن أنسيك حبيبتك في ليلة واحدة.. ولا في خمسين ليلة...

نظر لها متسائلًا عن قصدها، فجلست جانبه قائلة في حماس:

- لو لاحظت، فأنا شيء مختلف.. وكذلك التحدي الذي أعرضه عليك..

اعتدل في مجلسه مهتمًّا، فقالت وهي تنظر لعينيه مباشرة:

- أريد منك ثلاثة أشهر...

صاح مستنكرًا:

- ثلاثة أشهر!.. هذا عمر بأكمله...

قالت بسرعة:

- هذا هو الاختبار الحقيقي.. أنت لم تكمل ليلة مع أية امرأة...

- ثلاثة أشهر؟!.. وكل ليلة معك؟!.. ستمل الشقة ذات نفسها!!

- لا.. في الثلاثة أشهر لن تمسّني...

نهض وهو يصيح مستنكرًا:

– لن ألمسك؟!!.. أنت حالمة يا فتاتي...

كتمت ضحكتها بصعوبة وهي تقول:

– هناك خبر سيئ.. أنت لن تلمس – خلال الثلاثة أشهر – أية امرأة، أو خمر...

نظر لها مبتسمًا في استنكار، وقال صائحًا:

– أنت مجنونة.. هل أخبرك أحد بهذا من قبل؟

قالت مبتسمة:

– هذا هو التحدي.. أتقبله.. أم إنك لست رجلًا بما فيه الكفاية؟!

صاح حانقًا:

– هذا أسلوب أطفال...

نظرت له واثقة وهي تهز كتفيها مبتسمة، فصمت لحظة لا يدري ما يقول، ثم أخذ يمشي في الشقة بعصبية ويدور حول نفسه مفكرًا...

هذا التحدي يستفزه بشدة...

أعجبته فكرة التغيير والدخول في شيء مختلف...

لكن ثلاثة شهور.. ودون أية متعة تجعله يهرب...

سيظل في واقعه ولا يهرب إليها...

قال بصرامة لكن هناك بسمة خفيفة على شفتيه:

– سنمسك العصا من النصف.. أسبوع واحد...

ضحكت وقالت:

– ثلاثة شهور..

قال باسمًا وقد تألقت عيناه تألقًا لم يشهده التاريخ منذ سنين:

– كيف سنعيش معًا كل ىمذه المدة إذن؟!

قالت مبتسمة:

– دع هذه المهمة لي...

قال بعند ليس أكثر:

– شهر واحد.. وإلا لا تحدٍّ.. ولن أرى وجهك ثانية...

تفاجأت من ثقته، ووجدت الصفقة تنسحب من بين يدها، فاقتربت وهي تقول بدلال:

– شهران.. من أجلي...

وتلاقت عيناهما بقوة...

من أجل هذه العيون فقط...

قال ناظرًا لها مبتسمًا وهو يمد يده:

– موافق...

ابتسمت في فرحة وهي تصافحه قائلة:

– حسنًا.. تمنَّ لنا معًا حياة موفقة...

نظر لها مبتسمًا...

من أجل تلك العيون التي تشبهها يا طه فقط...

فقط..

قال نادر بقلق:

- أتظنينها نجحت؟

قالت سما ناظرة له نظرة حانية:

- إنها تحب.. ولا شيء يقف أمام امرأة تحب...

***

مر أسبوع ونغم تذهب للشركة...

مر أسبوع وكل يوم تذوب أكثر.. لكنها تنكر بشدة مشاعرها...

ولا تعلم لماذا...

لا توجد ميزة واحدة في أحمد سالم...

-نغم.. انتظري...

انتفضت على صوته وهي أمام المبنى، فتوقفت والتفتت لتنظر لعينيه وترتجف عيناها فتنظر للأرض ثانية.. قال وهو يصافحها:

- كيف حالك؟

قالت بصوت خفيض:

- بخير حال..

نفخ في يده من الصقيع، وقال بلهجته الهادئة:

- كيف تحتملين هذا البرد؟.. هيا نذهب للمكتب بسرعة...

همست قائلة وهو يسبقها:

- -وكيف أشعر بالبرد للحظة.. وحرارة قلبي تدفئ عالمًا.. هل تظنين يا ملاكي أن لأي شيء معنى؟.. البرد، الحر، السماء، الليل..

لا معنى لها إلا بوجودك جانبي.. أبرد لأنك بعيدة.. أشعر بـــالحرارة فقط بوجودك جانبي...

توقف فجأة عن الصعود ونظر لها بحدة.. فقالت بارتباك شديد:

– هذا كلام من قصة أحببها...

كان لأول مرة ينظر لها بهذه الدهشة والانفعال...

قالت مكملة تبريرها غير المبرر:

– إنها همسة عابرة والله العظيم..

قال مقاطعًا إياها:

–-أصعد للسماء عندما تقولين الكلمة التي إن لم توجد.. لمسات كل شيء جميل.. كلمة أحبك يا فارسي الوحيد.. والليل.. وآه مـــن الليل.. لا أعرف الليل إلا عندما تغيبين عني، وأفتقدك.. أو عنـــدما أمسك عودي لأعزف به شجني.. أنا أعشق الليل.. وعرفت كل هذه المعاني عندما دخلت أنت حياتي.

وصمت لحظة، ثم أكمل صعوده مكملًا:

–-أنت يا حبيبتي كل المعاني.. وكل المعاني دونك جماد.

نظرت له مذهولة...

لقد نطقها بإحساس غير طبيعي...

كيف حفظها؟.. أيعشق القصة مثلها؟.. لقد قال لها يومًا إنه يكره جميع أنواع القصص...

كيف؟

***

-ماذا فعلتِ بالشقة؟!.

قالها طه الغريب مندهشًا، وهو ينظر لأشجان - حنين - التي ارتدت ثيابًا متسخة قليلًا، وترتدي إيشاربًا تربطه حول رأسها.. وكان عائدًا من عمله حالًا، فنظرت له ثم ضحكت وهي تنظر لنظرته الساخرة وهو يقول:

- خدامة.. هذا يليق بك أكثر...

تحركت بحماس نحوه وقالت:

- ألا يجب أن أرتب المكان الذي سأعيش فيه شهرين؟

قال بلهجة هادئة:

- يومان.. يومان فقط وبدأت تغيرين نظام حياتي.. هذا رائع..

ثم استطرد بسخرية:

- هناك غسيل في الداخل.. لا تنسيه...

وضحك، وضحكت هي بشدة...

كم هي سعيدة!.. كم تشعر بالراحة!

ذهبت له وهي تقفز في حماس، وضحكت عندما قال لها:

- بلهاء.. كان هذا واضحًا من البداية.

قالت وهي تمسكه من يده وتذهب للداخل ركضًا وتسحبه معها:

- هيا أريك ما فعلته في الشقة.

وأرته غرفة والديه التي أصبحت نظيفة جدًّا وقالت:

- هذه الغرفة لم أضف إليها شيئًا.. فهي تخص والديك..

- والدتي... فوالدي رحمه الله...

قالت في عجالة وهي تذهب به غرفة ثانية:

- هذه غرفتي.. وأيضًا لم أمس فيها إلا أشياء طفيفة.. حتى لا تغضب منك أختك...

ثم - بهدوء هذه المرة - وضعت يدها على عينيه وقالت:

- والآن.. المفاجأة الكبرى...

وأخذت تصدر صوت دقات إثارة.. جعلت طه يهز رأسه في حسرة قائلًا:

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

وأزالت يدها من أمام عينيه وهي تصيح:

- تا تا تا تا...

نظر لها كمن ينظر لمجنونة، ثم نظر لغرفته...

هي لا تعلم أنه لم ينم - أو يجلس - فيها منذ فترة طويلة.. لكنها - ولا يعلم كيف - جعلتها جنة...

قالت وهي تهمس في أذنه:

- ما رأيك؟

قال وهو يتأمل الغرفة بشرود:

- رائعة..

ثم انتفض عندما صاحت بفرحة:

- حقًّا يا طه؟!

كانت صرختها عالية في أذنه فالتفت إليها صائحًا:

– أنت حقًّا بلهاء.. لم أكن أتوقع أنها حقيقة.

ضحكت بشدة، وهو ينظر لها حانقًا..

قالت بحماس أكثر:

– هناك المفاجأة الكبرى..

صاح بها:

– كفاني مفاجآتك اليوم..

ذهبت وهي تقفز على قدم ثم على القدم الأخرى، وتذهب لشيء ما مغطى بملاءة كبيرة ووقفت لحظة لتنظر له...

قال بفضول وقد توقع طعامًا فثارت حماسته:

– ما هذا؟

نظرت لعينيه مباشرة وقالت بجدية:

– شيء وجدته ملقى في مخلفات الشقة، التي تلقوها خلف هـذا الستار...

ورفعت الغطاء عن الشيء...

وانعقد حاجبا طه في غضب...

***

قال بنفس الغضب بعد لحظات من الصمت:

– ما الذي جعلك تخرجين هذا الشيء؟!

ارتفع حاجباها في حزن ودهشة...

طه الغريب.. يقول على الأورج هذا الشيء؟!

قالت محاولة تقمص شخصية حنين الجاهلة:

– قال لي نادر إن الأورج ضاع منك منذ زمن.. لذا فقد بحثت عنه.. وعجبًا لم يكن ضائعًا.. بل مختبئًا...

قال طه بصرامة:

– لقد ضاعت أشياء كثيرة منذ فترة طويلة.. أشياء لا أريد رجوعها.. فقد فقدتها للأبد..

صرخت أشجان معترضة، وقالت حنين بهدوء:

– كما تريد...

ثم صمتت لحظة وقالت بنفس الهدوء:

– وجدت لك مفاجأة أخرى...

كان مزاجه قد تكدر، فقال وهو ينصرف مسرعًا:

– لا أريد مفاجآت أخرى...

لم تقل شيئًا، وإنما ضغطت على زر التشغيل في الكاسيت، فأصدر أنغامًا..

أنغامًا أقل ما يقال عنها إنها رائعة...

وتوقف طه...

لقد أدارت هي لحنًا خاصًّا...

لحنها...

أشجان...

وأغمض طـه عينيه في اشتياق...

وخفق قلبه، الذي لم يخفق بهذه الطريقة إلا لها...

ووقف..

ظل واقفًا لا يبدي حراكًا معطيًا ظهره لحنين...

وكان يستمع بروحه...

روحه التي ماتت منذ فترة طويلة...

هذا اللحن عزفه لها.. وكان عنها.. ومنها.. وإليها...

هذا اللحن الذي ألفه وعينيها أمامه وشعرها يطير وبسمتها تـنير السماوات...

كان لحنًا لكلمة واحدة قالتها...

أحبك يا طه.. أحبك...

كم اشتاق له..

وابتسم في حنان...

وطارت مشاعره مع لحنه...

ورآها أمامه تضحك معه...

لقد جعله اللحن يراها...

وابتسم لها ليجدها تبتسم له، وكل شيء فيها يبتسم...

مد يده لها وشعر بملمس يدها؛ فانحنى وقبل يدها في خشوع...

فعل كل هذا بخياله وهو واقف.. خلفه نظرات حنين.. ونظرات أشجان...

شعر بحياتها ثانية...

شعر بروحها...

وانتهت المقطوعة...

واختفت أشجان...

اختفت مع انتهاء اللحن على نحو جعله ينتفض جزعًا وشوقا كيلا تذهب...

بعد فترة صمت، التفت لـحنين ونظر لها، ليجد حنين قد امتلأت عيناها بالدموع واحمرت أنفها من البكاء الصامت، وقالت عندما وجدت نظرتها له:

– لحن رائع.. حقًّا لحن رائع...

المفترض أنها أول مرة تسمعه...

صمت لحظة، ثم قال بصوت مخنوق، صعد عاليًا بصعوبة:

– رحمها الله...

وبخطى بطيئة عاد للحجرة.. أمام عينيها المتسائلتين..

ثم جلس على فراشه، ونظر لها قائلًا بصوت خفيض، ضعيف:

– أيمكن أن تعيدي هذه المقطوعة؟!

انهمرت دموعها الصامتة وهي تراه هكذا، وقالت بسرعة:

– طبعًا.. إنها مقطوعة رائعة...

قال بنفس الصوت الرخيم الذي لم يسمعه أحد من طه أبدًا:

– فقط أريدك أن ترفعي الصوت قليلًا...

ثم نظر لها بعينيه بنظرة لم تر أكثر منها حنانًا وحزنًا، وقال:

- لقد افتقدها حقًا...

وضغطت زر التشغيل...

نظر لحنين لحظة وابتسم لها بحزن...

وابتسمت له من بين دموعها...

وأغمض عينيه، وأراح رأسه على مسند الفراش...

وبدأ اللحن...

***

- 6 -

تطورت علاقة نادر وسما...

أصبح يكلمها يوميًا على الهاتف.. في البداية كانت المكالمات لا تزيد عن دقيقة أو اثنتين.. لكن بعدها أصبح الهاتف بالساعات.. حتى إن من يراهما قد يقول إنهما مراهقين وليس اثنتن في أواخر الثلاثينات...

كانت وحيدة، وكان وحيدًا، فاحتاجا لبعضهما بشدة..

وعرفت سما عن نادر أشياء لم تعرفها من قبل.. كما عرفها هو أيضًا..

وخفق القلبان من جديد...

بعد أن كانت دقة خفيفة لا تسمع، أصبح صراخًا يملأ الدنيا إحساسًا...

- لماذا لم تتزوج حتى الآن؟.

سألته سما مرة في الهاتف، وبطبع نادر الخجول بح صوته، وقال:

- لا أدري.. لقد أخذتني الحياة العلمية أكثر...

قالت بحماس لا تدري من أين أتى:

- يا نادر.. أتضحك علي أنا بهذا الكلام؟

خفق قلبه بسرعة لا تبشر بالخير إن نطقت كلمة أخرى. وقـــال وقد بدأ قلبه هو الذي يسيطر على لسانه:

– ربما لم أجد من تناسبني بعد...

صمتت لحظة، ثم قالت بتساؤل لا يحمل براءة كلماته:

– أتعني أن كل هذه المدة لم تجد أي واحدة تناسبك؟

ولو سمع نادر نفسه وهو يقول:

– لقد خفق قلبي مرة واحدة.. لم يخفق بعدها أبدًا...

لكان غشي عليه في الحال...

وصمتت سما...

صمت متردد، بين إلقاء سؤال آخر قد يقلب الأمور كلها...

أم تصمت وتظل بحريتها معه دون قيود...

وصمتت...

ليس الآن...

وطبعًا كان نادر – خلال هذا الصمت – قد وقف فوق كرسيه خائفًا من ردها، ومنتظرًا ردها في نفس الوقت...

قالت ضاحكة:

– ستأتي حتمًا من تقلب كيانك.. لكن أخبرني، هل عاد طــه أم لا؟

قال بإحباط وهو ينزل ليجلس على كرسيه ثانية:

– لا.. لم يأت بعد...

***

قال الطيب لغادة – الواقفة في المطبخ تغسل الأطبـاق بحمـاس منقطع النظير – في قلق وهو ينظر لساعته:

-ألم يعد طه من دروسه بعد؟

قالت غادة وهي تمسح يدها في ملاءتها:

– ربنا معه.. لا تستهن بالثانوية العامة...

لكن الطيب لم يسترح لهذا الرد أبدًا..

***

-كيف عرفت؟.

قالتها نغم وهي تنظر لأحمد سالم فجأة، فانتفض هذا الأخير وقـد كان منكبًّا على لوحة يرسمها بدقة، ففعل هـذا الـسؤال البـسيط مشاكل لا حصر لها في اللوحة..

قال ونظرته تريد ضربها بالمسطرة الـT:

– لا أدري.. عرفت وانتهى كل شيء..

انعقد حاجباها لغرابة رده، ثم أدركت أنه يمزح بطريقته الغامضة، فقالت وهي تعقد حاجبيها:

– أنا لا أمزح.. كيف عرفت؟!

قال ضاغطًا على أعصابه كي يخرج صوته هادئًا:

– عرفت ماذا يا عبقرية؟!

كان قد فات على الموقف ثلاثة أسابيع لم تكلمه فيها عن الموضوع إطلاقًا، لذا كان معذورًا نوعًا.. فقالت وقد أهلكتها حيرة ثلاثة أسابيع:

– كلام قصة همسة عابرة.. إنك تكره المؤلف عمومًا، ولا تحب القصص الرومانسية.. ولا تحب القراءة بشكل عام.. فكيف تحفظ كلام تلك القصة بالذات..

صمت وهو ينظر لها لحظة، ثم قال بلهجته العادية التي بلا مشاعر:

– ولماذا تريدين أن تعرفي؟!

قالت بحماسها المعهود:

– لأنها القصة الوحيدة في العالم التي خطفتني من نفسي.. وفعلًا أحفظ كل سطر بها.. وأنا أحترق الآن فضولًا.. لماذا تلك القصة بالذات تحفظ كلامها.. وكيف؟

نظر لها لحظة بتركيز...

أربكتها نظرته المباشرة، فارتجفت عيناها خلف عويناتها، فقال هو باسمًا:

–أتعلمين شيئًا؟!

نظرت له متسائلة، فقال بلهجة هادئة:

– إن لك أجمل عينين وقعت عليها عيناي...

ارتجف قلبها كريشة في مهب الريح، وارتفعت درجة حرارتها من الخجل، وتسارعت أنفاسها، ورفعت عيناها بتردد لعينيه و...

وأصابها إحباط تام...

فقد أمسك بقلمه وانكب على اللوحة في تركيز شديد، وبدا أنه نسيها تمامًا...

لكنها كانت ظالمة...

فهي لم تر البسمة الحانية على شفتيه...

ولا سمعت صوت دقات قلبه المترددة...

بين دقة حب...

ودقة خوف...

***

ثلاث أسابيع وطه الغريب كما هو...

لم تشعر بأنها بدَّلته إطلاقًا...

هو كما هو.. سخريته المريرة النادرة.. استهتار تام بكل شيء..

وحياته على ذكراها...

المصيبة أنها بدأت تغيِّر من أشجان...

بدأت تغير من نفسها عليها..

وفي ذات الوقت، عشقته عشقًا...

كل هذه السنين وهو مخلص لها إخلاصًا تامًّا..

وهي – حنين – رسمت نفسها بشكل فارسة أحلام طه.. كما كان يصفها منذ زمن.. محاولة أن تنسيه نفسها – أشجان – التي لم تكن لها علاقة بما يتمناه طه في فتاة أساسًا...

ربما تشعر – لأول مرة – ما هو الحب الحقيقي فعلًا..

كانت في منزله تنتظره...

ربما هو الشيء الوحيد الذي غيرته في طه.. أنه يعود إليها كل ليلة ليتبادلا الحديث فقط...

وبالتالي انتهت لياليه مع النساء الأخريات والخمر...

وهذا تغيير كبير بلا شك.. لكن شخصيته كما هي...

نظرت للأورج.. ثم لم تلبث أن نهضت متجهة نحوه بفضول، ثم جلست أمامه وفتحته ببطء...

أضيئت مئات الأنوار التي لم تفهم فيها حرفًا.. فضغطت أحد أصابعه فأصدر نغمًا، فأخذت تضغط على جميع الأصابع واحدة تلو الأخرى...

وبعد فترة أعجبها الموضوع.. فأخذت تحاول أن تصدر أي أنغام فلم تستطع، وصدر منها نشاز غير عادي، جعلها تترك الأصابع في خوف...

كانت مستمتعة لأنها تجلس على عشق طه الأول وتعرف ما به...

أو ما كان عشق طه الأول...

نظرت للجهاز ثانية.. ولاحظت أن شريط التسجيل الذي يسجل عليه الألحان من داخل الأورج ما زال موجود...

ضغطت زر التشغيل بعد أن أعادته من أوله وبدأت تسمع...

إنها ألحان طه القديمة – بالنسبة للزمن الحالي – لكن في بدايتها، أي وهي ما زالت خواطر.. جمل لحنية تعرفها تمامًا من روعتها.. وجمل أخرى لم تسمعها لأنها لم تكن جيدة بما يكفي...

حتى صمت الشريط تماما للحظات.. ظنّته انتهى.. لكن إذ بلحن ما بدأ في هدوء...

لحن رقيق.. هامس.. حنون...

جذبها من أول نغمة فيه...

وأطارها رغمًا عنها في السماء...

سماء الخيال...

أول مرة تسمع هذا اللحن...

وعجبًا لما رأت وهي تسمع...

رأت نفسها وهي عروس وهو عريسها...

ورأت ذلك الدم في قميصه ناحية قلبه...

والبسمة التي في شفتيه رغم جرح قلبه...

ورأت نفسها تبتعد...

دمعة عينيه تكاد تهبط وهو يمد يده إليها محاولًا منعها.. ويده الأخرى تمسك قلبه الدامي.. و...

فقط..

لم يكمل اللحن...

ساد صمت تام.. فانتفضت من شرودها في جزع، وهي تنظر للأورج ترجوه أن يكمل اللحن...

لكن الجهاز أبى تمامًا...

كم ثارت مشاعرها من شجن.. لسعادة.. للهفة لحزن...

كم أرادت اللحن أن يكتمل كي تفرغ تلك المشاعر كلـــها في نغماته...

وهذا هو طه الغريب...

ببساطة شديدة، هذا هو طه الغريب...

أعادت ثانية اللحن المقطوع.. وفي كل مرة تندم لأن اللحـــن لم يكتمل...

قطعة لحنية لا تزيد عن **30** ثانية...

لكنها أدمنتها...

أدمنتها لدرجة أنها حاولت عزفها مرة... وثانية...

ولكن كل محاولاتها باءت بالفشل.. فبكت...

ورغم منطقية الأمر لأنها أول مرة تعزف على الأورج.. إلا أنهـــا ربطت بين عدم فهمها للجهاز يعني عدم فهمها لطه أبـــدًا.. وهـــذا أبكاها...

وفجأة.. امتدت يد من خلفها، وذهبت للأورج لتمسك يـــدها المستقرة على الأصابع..

انتفضت من المفاجأة.. ولكن ما إن وجدتها يد طه حتى استسلمت ليده تمامًا، التي فرد أصابعه على أصابعها وجعل الأصابع متطابقة...

وبدأ العزف...

كان يضغط على أصابعها فبالتالي تضغط هـــي علـــى الأورج في سهولة..

وأغمضت عينيها في استمتاع...

لقد كان يعزف لحنهما...

نفس اللحن الذي جعلته يسمعه منذ أيام قليلة...

لحنها...

كان يعزف بيدها في حنان وعذوبة.. جعلها - كما في كل مرة - تذهب بعيدًا...

وعجبت كيف لجهاز كهذا أن يخلق عالمًا متكاملًا لا تشوبه شائبة..

عالم من خيال.. عالم من مشاعر...

عالم يضع عقلك فيه أول لبنة وهي الاستمتاع...

ويكمل خيالك بناء عالم بأكمله...

وربما هذا هو سر عبقرية طه...

أنه يرغمك على دخول عالم ما...

عالمك.. وخيالك...

فتخرج من اللحن سعيدًا؛ لأنك شعرت شعورًا ما.. شجنًا كان أو سعادة...

لكنه شعور أخرجه منك كي تستريح منه...

وانتهى اللحن...

كانت مستمتعة تمامًا باللحن فرفعت رأسها إليه...

وهالها ما رأت...

كان مغمض العينين.. ويده التي تحتضن يدها ترتجف...

لقد فعل ما يفوق طاقته...

عندما عاد من العمل ورآها علـــى الأورج تـــستمع إلى ذلـــك اللحن...

اللحن الذي لم يكمله، لقسوته على قلبه.. كلما تذكّر موقفـــه.. عندما سافرت...

لذا عندما عاد وسمع ذلك الجزء شعر داخله بدمار هائل...

كل القوى بداخله تخلت عنه فجأة...

فحياته ذكراها...

كيف إذن تقسو الذكريات هكذا؟!

نظر لـــحنين وهي تبكي وتحاول عزف اللحن فابتسم في حنان...

لقد أثارت هذه الفتاة عاصفة في حياته...

لذا – بخطى بطيئة – ذهب من خلفها وأمسك يـــدها لجعلـــها تعزف...

لكنه لم يعزف ذلك اللحن...

لقد عزف لحن أشجان...

ربما لكي يثبت لنفسه أنها موجودة ولم تذهب بعد...

كل هذا فعله ولم يدر شيئًا أو لم يتمالك نفسه...

ولكن عندما انتهى من العزف أدرك شيئًا...

أنه يعزف...

أنه – بعد عهد دام سنين – يعزف...

كم اشتاق لهذا...

كم اشتاق احتضان نغمات الأورج له مهونة أحزانه...

لكن لا...

لذا.. حاول رفع يده من عليه...

نقول حاول؛ لأن يده لم تصعد...

في الماضي لم تطاوعه أصابعه كي يعزف...

الآن لا تريد يده أن تتحرك من على صديق الذي ظلت عمرًا لا تتركه يومًا...

لذا ارتجفت يده بشدة.. وأغمض عينيه...

اهرب يا طه...

لا تعود...

سيعيدك العزف لها.. فلا تعزف...

سيعيدك لعالمك.. الذي هو عالمها...

وستنهار أكثر مما أنت منهار...

وهنا فقط تحركت يده مبتعدة عن الأورج.. وانتصر الهروب ككل مرة...

لقد ظللت عمرك هاربًا.. فلا تجهد نفسك في تعب المحاولة...

اهرب...

فجأة، منع يده من الحركة يد ثانية...

يدها...

أمسكت يده بقوة شديدة وثبتتها على الأورج بإصرار...
والتقت عيناهما...
قالت عيناها له: لا.. لن أسمح لك بالهرب...
وقالت عيناه لها في ضعف: أريد أن أرتاح.. أريد أن أهرب...
لكنها لم تترك يده.. ولم يحاول هو محاولة جدية...
صاح بها بعد لحظات من الصمت:
– ماذا تريدين؟.. دعي يدي..
هزت رأسها في قوة قائلة:
– لا...
ثم التفتت إليه هامسة:
– أعزف لي مقطوعة أخرى.. وغلاوة أشجان عندك...
قال وقد تمنى أن يكون ما سمعه خطأ:
– ماذا؟
أعادت قولها بصوت عال وهي تنظر لعينيه مباشرة...
وفطر قلبها وهي ترى عينيه ترتجفان في حيرة من الصراع...
لقد حلفت بأغلى ما في وجوده...
قال بصوت خفيض:
– هذه المرة فقط...
قالت ببسمة منتصرة:

- لا أعدك إطلاقًا.. وصدقني سأحلفك بها كثيرًا جدًّا...

ثم نهضت من جلستها وأجلسته مكانها أمام الأورج...

نظر له، ثم امتدت أصابعه لتتلاقى مع أصابع الأورج في لهفة...

كانت هذه الخطوة كبيرة بالنسبة له...

بدأت أصابعه تضغط على الأورج في حنان، وكأنما هذا الجهاز حبيب طال الاشتياق له، وليس مجرد جماد...

وفعلًا كان طه يعزف عليه موسيقى حية.. لأن روحه فيها...

نظرت حنين له ولذلك الحماس الذي دب فيه، وتألق عيناه وهو يبتسم في سعادة حقيقية...

نظر لها قائلًا:

- ماذا تحبين أن تسمعي؟

همست قائلة:

- أي لحن لها..

- كل ألحاني لها...

ابتسمت قائلة:

- أقربها إلى قلبك إذن...

فكر قليلًا ثم التفت إلى الأورج بحماس وهمَّ بالعزف...

مالت على أذنه وقالت باسمة في حنان:

– إذا استطعت أنت أن تهرب من الدنيا وتنتصر على نفسك بالهرب.. فاعلم أن هناك قوة إضافية أضيفت إلى نفسك.. لن تجعل الهروب ينتصر ثانية..

وقبّلته في رأسه من الخلف مكملة:

– ولتعلم أن هذه القوة هي أنا...

صمت تمامًا...

تلك الكلمة سمعها من قبل...

من أشجان...

قال متناسيًا خواطره بابتسامة:

– ألم نتفق على عدم التقبيل؟

قالت ببسمة:

– اتفقنا على ألا تقبلني أنت.. وليس أنا...

همَّ بالاعتراض لكنها قالت بسرعة:

– هيا.. اعزف...

وأغمضت عينيها مكملة:

– واجعلني أطير..

ابتسم ناظرًا لها...

وبدأ يعزف...

نغم..!

- 7 -

-اللعنة!.

صاحت بها نغم في عصبية، وهي تنظر لسن القلم الرصاص الذي معها، وقد كسر آخر سن فيه، وهي في وسط لوحة مهمة نوعًا...

أخذت تبحث في مكتبها في سرعة وعصبية وعندما لم تجد نفخت في ضيق واضح...

صعدت منها نظرة على مكتب أحمد سالم ولم تتردد كثيرًا، وذهبت على الفور لتبحث عن سنون، وأخذت تفتح الأدراج في سرعة وهي تشعر بتأنيب ضمير لأنها لم تستأذن أحمد.. لكنه كان مع المدير...

هنا.. في آخر درج.. أثار انتباهها شيء...

رزمة أوراق كبيرة فوق الـ200 ورقة، وعنوان في أول ورقة..

عندما يبتسم الحب...

مع إمضاء صغير يقول: تأليف أحمد سالم...

لم تستطع كبت دهشتها وفضولها، فلم تجد غضاضة في أن تأخذ تلك الرزمة وتذهب بها شاردة إلي مكتبها وقد نسيت موضوع اللوحة والسن...

فتحت أول صفحة لتجد كل الصفحات متهرئة مما يوحي بأنها قديمة...

وبدأت تقرأ...

جذبها بشدة أسلوب الكتابة المسترسل وبراعته...

وانغمست تمامًا في القصة...

وتابعت أحداثها الرومانسية بكيانها كله...

وانتهت القصة...

بنفس السرعة – التي لم تتجاوز ثلاثة أسطر – شعرت أن القصة انتهت...

ولكن ما إن نظرت للساعة، حتى وجدت أنها كانت جالسة مكانها لم تتحرك لمدة ثلاث ساعات كاملة...

ثلاث ساعات شعرت بأنها دقيقة واحدة.. حتى إن معاد انصرافها مر منذ ساعة ولم تشعر...

إنها لم تشعر بهذا الانغماس والروعة والإحساس إلا في قصة واحدة...

همسة عابرة...

كم يتشابه الأسلوبان لدرجة التطابق...

وهو الذي ألف كل هذه الروعة...

يا له من عالم متكامل يختبئ وراء تلك العينين...

طوال عمرها تشعر بأن التأليف هذا وحده عبقرية...

أن يخلق الإنسان من قلمه ذلك العالم من الأبطال الذين يـــذوبون في وجداننا...

وهو مؤلف.. بل ورائع في كتاباته...

كم هو...

-ما هذا؟!.

انتفضت على صوت أحمد الغاضب...

نظرت له مرتبكة، فأكمل غاضبًا بشدة:

– من سمح لك بأن تنظري إلى أشيائي الخاصة؟

كان غاضبًا لدرجة أفزعتها؛ فقالت مبررة بصوت ضعيف:

– لقد.. كـ.. كنت أبحث عن سن لقلمي.. فـــ.. فلـــم أجـــد، وبحثت في مكتبك فوجدت هذا الورق.. و.. و...

كان غاضبًا بحق؛ لذا فقد ذهب إليها وجذب الأوراق بعنف لم تره من قبل فيه، وصاح هو:

– اعلمي دائمًا أن هناك حدود لا يتخطاها أحد.. وإذا كنـــت تبسَّطتٌ معك قليلًا، فليس هذا معناه أن تتدخلي في شئوني الخاصة.. اعلمي أنك بهذا الفعل فقدتِ ثقتي تمامًا.

وصمت وعينيه تنطق شرًا، ثم أكمل بصوت خفيض لكن قاتل:

– بل وفقدت احترامي لك كذلك...

ووضع الأوراق على مكتبه في عصبية واضحة، ورمقها بنظـــرة قتلتها، ثم انصرف غاضبا وصفق الباب خلفه في عنف..

نظرت للباب المغلق في شرود وهي منكمشة...

ومن عينيها سالت دمعة.. تبعتها أخرى...

هي أخطأت...

وهو لم يرحم...

وخسرت الكثير...

جدًّا...

-ماذا تريد مني يا طيب؟....

قالها نادر في ملل نوعًا، وهو يجلس في بيت الطيب الذي أجابه بأسلوبه المرح الرائع:

– يا أخي انتظر قليلًا.. هل قامت القيامة.. الصبر يا نادر الصبر...

قال نادر وهو ينظر للمطبخ الذي بداخله غادة وسما بلهفة واضحة:

– إني مستعد للصبر لكن أريد معرفة آخرة صبري...

ابتسم الطيب بخبث قائلًا:

– آخرة صبرك في المطبخ تتحدث مع زوجتي.. فاصمت واصبر..

ابتسم نادر بحيانه المعهود وقال باسمًا:

– إننا أصدقاء الآن.. فما قصدك؟

نظر له الطيب وهم بالكلام، لولا أن دق جرس الباب، فذهب كي يفتح الباب فى سرعة ولهفة رغم بدانته.. وفتح الباب قائلًا بترحاب:

- ما كل هذا التأخير يا أغرب من أنجبت البشرية؟!

رد طه الغريب عليه بمرح:

- أنت تعلم أني أحب الظهور متأخرًا.. لأن هذا يجعلني أهم الحاضرين...

قالها مازحًا وهو يدخل الشقة سريعًا، ثم وقع بصره على نادر فتوقف...

قال الطيب وهو يربت على كتف طه وهو في الحقيقة يدفعه ليتحرك قليلًا:

- ألم تلاحظوا أننا لم نتقابل منذ ثلاثة أسابيع؟!.. نحن الذين لم نكن نفترق إلا لننام؟.. لذا قررت أن أجمعنا.. ما رأيكم في تلك المفاجأة؟

صمت نادر ناظرًا لطه...

كانا يفتقدان بعضهما حقًّا...

هما - للمرة العاشرة - كالماء والنار.. مختلفان في كل شيء.. لكن يربطهما صداقة عمر، تجعل كل واحد منهما في حاجة للآخر.. مهما أنكرا ذلك...

وكان غضب طه من قسوة نادر قد برد تمامًا.. وكذلك غضب نادر من سلبية طه، عندما وجده قد أخذ موقف ما، بعدم الكلام معه!!!

لذا.. باعتذار صامت من كل منهما، ذهبا واحتضنا بعضهما بشدة...

وقال نادر بلوم باسم:

– يا سخيف.. ولا كلمة لمدة ثلاثة أسابيع؟

فرد عليه طه ببسمة أيضًا:

– أيا عبقري.. ترسل لي بفتاة لا أعرف تصنيفها لهذه اللحظة، لتنسيني أشجان..

ضحك نادر وقال وهم يجلسون:

– أظن أن الفكرة لم تكن بهذا السوء.. فهي عندك كل هذا الزمن...

قال طه وقد شرد قليلا:

– هي حالة جديدة.. تحدَّتني أن أنسى أشجان وكنت أريد هذا التحدي...

صاحت غادة منادية:

– يا محمد.. افرش ورقًا على السفرة.. وليساعدنا أحد الأحمقين الذين معك..

صاح طه مصححًا:

– أحمق وأبله من فضلك يا غادة...

صاحت غادة مندهشة:

– أبله؟!.. أ/ طه الغريب عندنا؟!

ضحك الجميع في مرح، ونهض طه ونادر ليساعداها، ثم مال طه على أذن نادر قائلًا بضحكة:

– لنا نقاش طويل على موضوع سما هذا...

ونظر له نادر باسمًا...

انتهى الغداء في جو من المرح.. وجلسوا يتحدثون جميعًا، ما بين مناغشات غادة لنادر وطه.. والسخرية من جانب الاثنين على الجلسة كلها.. حتى نادر فقد الوقار الذي كان فيه...

هنا تصاعدت نغمات أورج من أحدى الغرف...

صمت طه تمامًا.. هو يعلم تلك الألحان جيدًا...

إنها ألحانه!

قال طه للطبيب:

- ما هذه النغمات.. أهناك أحد يسمع شريطي هنا؟!

قال الطبيب معتذرًا وهو ينهض بسرعة:

- انه طه ابني يعزف.. سأذهب لكي أوقفه عن عزف تلك الألحان، أنا أعلم أنها تضايقك.. لكن ابني مصر على عزفها.. أنا في غاية الأسف...

قال طه بسرعة:

- لا.. لا.. دعه يعزف...

صمت الجميع ونظروا لبعض في دهشة...

طه الغريب يقول هذا؟!...

واتسعت عيونهم أكثر عندما نهض طه ليتجه لغرفة طه الصغير.. وكانت تتوقف فجأة لأن طه الصغير أخطأ.. ثم يعود لمحاولة عزفها مرة ثانية بإصرار...

بهدوء شديد فتح طه الباب، لينظر لطه الصغير وهو يعزف ويخطئ في نغمة معينة كثيرًا..

ووسط العيون المندهشة صاح طه الغريب:

- لا بد أن تسمع اللحن ثانية، حتى تعزفها بالطريقة الصحيحة..

انتفض طه الصغير وهو ينهض قائلًا بارتباك:

- أنا آسف.. لم أكن أدري أن صوت العزف عالٍ.. لا تغضب مني.

ابتسم الغريب وصمت لحظة، ثم اتجه نحو الأورج وجلس على الكرسي أمامه.. ولا داعي لقول أن الأربعة - نادر والطيب وغادة وسما - نهضوا ركضًا عندما دخل الغريب الغرفة...

ووقفوا جميعًا أمام الباب - الجالسِ على الأورج يعطيه ظهره - وانتظروا مترقبين...

قال الغريب لطه ببسمة خفيفة:

- اعلم أن أي لحن، أهم ما فيه هو الإحساس.. فعندما تحاول عزف اللحن -لأي شخص- لا تبحث عن كيف.. بل ابحث عن لماذا...

صاح طه بغباء نوعًا:

- ماذا تقصد؟

صمت طه الغريب مبتسمًا ولم يرد عليه...

فقط نظر للأورج وبدأ يعزف...

وتصاعدت الأنغام الحانية لنفس اللحن الذي حاول الصغير عزفه...

تصاعدت لتحيي المشاعر داخلهم جميعًا...

وصمتوا تمامًا وهم طائرون مع طه ونغماته...

حتى انتهى...

ساد صمت للحظة، استعادوا فيها أنفسهم، ثم دوى التصفيق الحاد من أيدي الخمسة فجأة.. والطيب يصيح:

- أعد.. أعد...

ضحك الغريب وقال لطه:

- أفهمت ما أقصد؟

والتفت إليهم بعد أن أشار له الصغير أنه فهم وقال:

- ماذا تريدون أن تسمعوا؟!

صاح كل منهم باللحن الذي يحبه...

ووسط الجالسين، تبادل نادر مع سما نظرة خاصة...

لقد تغير طه الغريب.. كثيرًا...

***

خمسة أيام لم ينطق أحمد سالم كلمة مع نغم...

خمسة أيام، يأتي ليجلس على لوحته بلا حتى إلقاء السلام.. ثم ينتهي من عمله وينصرف بسرعة بلا كلمة واحدة...

وكانت هي في أسوأ حالاتها...

كانت في كل ثانية تحترق من داخلها...

تشعر بالندم الشديد.. ليس لما فعلته.. بل لأنها جعلت الإنسان الوحيد الذي خفق له قلبها وجذبها بشخصيته، يغضب منها هكذا...

لذا.. وفي هذا اليوم بالذات ذهبت للمكتب – وعينيها محمرة من بكاء الليل كله – وقد اتخذت قرارًا معينًا جعلها تمشي بحماس...

صعدت لمكتبها بسرعة، واقتحمت المكان بعنف شديد، مما جعل جسد أحمد ينتفض وهو ينظر للباب مندهشًا، وما إن وجد أنها هي التي اقتحمت الغرفة انعقد حاجباه.. ونظر للوحة ثانية بضيق شديد...

نظرت له ولعينيه التين خطفا قلبها من أول نظرة، وقالت بعصبية:

– أنت يا هذا...

نظر لها مندهشًا.. فأكملت بعصبية دون تفكير:

– من أعطاك الحق كي تعاملني هكذا؟!

نظر لها نظرته التي تقتلها، ثم نظر ثانية للوحته متجاهلًا إياها، فذهبت للمكتب ووضعت يدها على اللوحة بعنف قائلة:

– انظر لي عندما أكلمك...

نظر لعينيها مباشرة، وقال بصوت قوي:

– ماذا تريدين؟!

ارتبكت من نظرته المباشرة، لكنها تمالكت نفسها وقالت بعصبيتها:

– ما الذي فعلته ويستحق كل هذا؟!

قال بهدوئه الجاف:

– ألا تعلمين؟!

صاحت فيه وقلبها هو الذي يتكلم:

– أتلومني لأنني عشت أجمل ساعات حياتي أقرأ قصتك؟!.. أتلومني لأني استمتعت بكل سطر بل وبكل حرف في قصة لم أر أجمل منها؟!.. علامَ تلومني بالضبط؟.. ألأني علمت أنك كاتب رائع.. وبداخلك مشاعر.. وبداخلك عالم من خيال خاص بك؟.. أم تلومني لأني عرفت جزءًا فيك لم يعرفه أحد؟!

نظر لها لحظة صامتًا، ثم قال بجفائه المعتاد:

– كل ما ألومك عليه أنك سمحت لنفسك أن تأخذي شيئًا من أهم خصوصياتي.. كان المفروض أن تسأليني أولًا...

كان كلامه منطقيًّا، لكنها قالت بنفس العصبية:

– ولقد قرأتها وانتهى الأمر.. ولتعلم شيئًا...

ومالت على مكتبه مكملة:

– أنا لست نادمة لحظة على ما فعلته.. وإن حدث ثانية لفعلته.. إن قصة كالتي قرأتها تستحق أن أخسر وظيفتي من أجلها.. وليس أنت فقط..

وأكملت وهي تذهب لمكتبها:

– فلتصمت كما تريد.. ولتعاملني أية معاملة.. أنا لم يعد يهمني شيء..

وجلست على مكتبها في صمت، وبدأت عملها متجاهلة إياه تمامًا..

وبعد ساعة كاملة من الصمت.. سمعت صوته الدافئ يتخلل أذنها قائلًا:

– أحقًّا أعجبتك القصة؟!

نظرت له لتجده يرفع عينيه إليها بتردد وتساؤل...

اتسعت بسمتها وهي تشعر بسعادة غير عادية، محت عذاب خمسة أيام كاملة وقالت بحماس شديد:

– إنها أروع قصة قرأتها في حياتي بعد...

وصمتت كأنما شعرت بالخجل من تكملة الجملة، فأكملها هو:

– بعد همسة عابرة طبعًا...

أومأت برأسها أن نعم، فابتسم هو في هدوء...

كانت ابتسامة حزينة.. وظهر تردد واضح في عينيه...

ولكنه بعد فترة صمت حسم أمره وقال لها:

– أريد أن أوصلك لبيتك اليوم...

انعقد حاجباها من مفاجأة العرض الذي لم تتوقعه إطلاقًا...

وشعرت بسعادة لا مثيل لها...

لكنها قالت بلهجة لم تقنعها شخصيًّا:

– طبعًا أتشرف بهذا.. لكني لا أستطيع أن أركب عربة رجل غريب.. أنا آسفة.

بدا عليه الخجل وقال بسرعة:

– لا عليك.. أنا الآسف لأني عرضت شيئًا كهذا دون تفكير.

شعرت بشفقة نحوه لأنها أحرجته هكذا، لكنها لن تغير موقفهـــا، فقال هو بسرعة:

– حسنًا.. غدًا في المكتب سأخبرك بشيء مهم.. لم أخبر به أحدًا من قبل...

قالت بلهجة هادئة:

– كما تريد...

ولكنها كانت تحترق فضولًا داخلها...

***

–أين كنت يا أستاذ؟...

قالها الطيب بصرامة، عندما دخل طه الصغير من بـــاب الـــشقة، ووجد أبيه جالس منتظره...

قال طه الصغير في ارتباك:

– كنت في الدرس.. درس العربي.

صمت الطيب وهو ينظر لطه نظرة صارمة، في نفس اللحظة التي خرجت فيها غادة بسرعة، وكانت نظرتها قلقة وهي تنظر للطيب...

بصوت هادئ لكن مخيف قال الطيب:

– وما الذي أخَّرك هكذا؟! معاد الدرس انتـــهى منـــذ ســـاعة ونصف...

هنا ارتبك طه حقًا، فاختلطت عليه الأكاذيب ولم يدر ما يقول...

–انطق...

قالها الطيب ليقطع حبل أفكاره، فقال الصغير بسرعة:

– لقد جلس المدرس ساعة زائدة، فنحن في المراجعات النهائية...

ونظر لأمه في رجاء، يطلب أي نوع من المساعدة، لكن نظرة أمه القلقة زادته ارتباكًا على ارتباك...

نهض الطيب ببطء بنظرته الصارمة واقترب من طه، الذي تراجع للوراء بتلقائية ثم اكتشف أن باب الشقة وراءه فوقف، ووقف الطيب قريبًا منه..

بنفس الهدوء المخيف قال الطيب:

– كنت سأحترمك حقًا لو لم تكذب...

قال طه بسرعة وغباء معًا:

– والله العظيم هذا ما...

قاطعته صرخة الطيب الغاضبة:

– لا تحلف.. إياك أن تحلف بربك كذبًا.

صمت طه تمامًا وهو ينظر لأبيه في رعب.. هي أول مرة يراه هكذا في حياته...

قال الطيب بصرامته:

– لقد انتهى الدرس قبل ميعاده بنصف ساعة.. لأن المدرس مريض.. أنت لا تعلم أن هذا المدرس أعرف نمرته، وكلمته.. ويا للمصادفة...

وأكمل بصوت عال فيه الغضب:

- إن ابني الكبير.. لم يحضر خمس حصص متتالية.. بـل وكـان يتغيب كثيرًا من أول السنة...

قالت غادة متدخلة عندما وجدت غضب الطيب:

- اهدأ يا محمد.. إنه...

صاح فيها:

- لا دخل لك بهذا يا غادة.. صمتًا..

وأكمل ناظرًا لأبنه البكري:

- سأذهب كل دروسك كي أوصلك.. أو أي من نادر أو طه.. لكنك لن تذهب وحدك إلى درس ثانية.. محـروم مـن مـصروفك والخروج...

وأشار لـغادة مكملًا:

- وأمك ستتابع مذاكرتك من هنا إلى يوم الامتحانات...

احمر وجه طه بشدة ولم يتكلم، فأكمل الطيب:

- هل عندك اعتراض؟!

هز رأسه أن لا.. فقال الطيب باحتقار:

- هيا.. اذهب.. فأنا لا أطيق رؤيتك...

خفض طه عينيه في ذل ومشى ببطء لغرفته عندما...

-آه.. محروم من العزف أيضًا.. فأنا لا أريدك أن تضيع وقتك في هذا الهراء.

هنا صاح طه رغمًا عنه:

– لا...

نظر له الطيب وعينيه تنطق بالشر، ولكن طه أكمل بضراعة:

– كفى عقابًا.. إلا العزف... أرجوك يا أبي...

هنا استشاط غضب الطيب الذي ظل يكتمه طوال تلك الفترة:

– ماذا تقول؟!

صمت طه عندما وجد نظرة أبيه الغاضبة، ثم استجمع شجاعته وقال:

– أنا أوافق على كل العقوبات.. إلا حرماني من العزف.. أنا أرفضه.

كان غبيًّا.. هذا واضح تمامًا، نظر الطيب له وتفجر غضب داخله يكفي سنين..

قال بهدوء:

– حسنًا.. طلباتك أوامر.

نظر له طه في أمل، في حين قالت غادة بقلق:

– ماذا تنوي فعله يا محمد؟!

قال مبتسمًا وان ظهرت عصبية واضحة:

– لن أفعل شيئًا...

وذهب لغرفة طه مسرعًا خلفه الاثنين راكضين، وأكمل الطيب:

– فقط سأذهب لغرفة طه.. رجل العائلة الذي أعتمد عليه.

قالت غادة بقلق:

- محمد!!

أكمل الطيب وهو يمسك الأورج:

- وسأمسك الأورج هكذا...

نظرات طه الخائفة، وصوت غادة يعلو:

- محمد.. ماذا تفعل؟!!!

ولم يرد الطيب...

فقط - بقوة هائلة - هوى بالأورج على الحائط...

وصرخ طه في جزع...

وهوى به مرة ثانية ليرتطم الأورج بالحائط وتتهشم أجزائه بعنف...

ثم يهوي به للمرة الثالثة والأخيرة...

حتى تحطم تمامًا...

ونظر الطيب لطه - الذي نظر لجهازه مذهولًا - وقال:

- اعزف كما تريد...

وانصرف غاضبًا...

وفجأة انفجر طه في البكاء..

وركض نحو القطع المبعثرة يلملمها كأن هذا سيعيد شيا...

ونظرت له أمه في حنان وشفقة. ولم تحتمل المنظر فمشت ..

ونظر طه لبقايا اورجه في حزن.

كان عقابا قاسيًا...

لكنه يستحقه...

فجأة ربتت يد حنون على كتفه.. فالتفت ليجدها أشجان – أخته الصغيرة.. فعزَّت عليه نفسه، وبكى ثانية في حضنها...

وبجانب الباب، وقف نادر الصغير، ينظر لأخيه في حزن. ثم قال بقوة وبأسلوب طفولي:

– لا تبكِ يا طه.. سأتصرف..

وذهب ركضًا – بجسده الصغير – وذهب للتليفون وطلب رقمًا، ثم قال بعد أن رد الصوت عليه:

– ألو.. ممكن أتحدث لعمو طه الغريب...

وعندما سمع صوت طه قال بسرعة:

– الحق طه يا طه...

وانطلق يسرد بطلاقة...

وطه الغريب يستمع...

ولكن طه الغريب – بعد ما عرف كل شيء – لم يبدِ حراكًا...

كان غضبه باد على وجهه، لكنه أغلق السماعة وأغمض عينيه في هدوء...

قالت له حنين وهي منفعلة:

– ألن تفعل شيئًا؟!

قال في هدوء غامض:

– وماذا تريدينني أن أفعل...

قالت في حماس:

– اذهب وانصر طه.. واغضب على الطيب...

قال بابتسامة هادئة:

– إن ذهبتُ الآن فسأذهب مهنئًا.. لا غاضبًا.

وفتح عينيه وهو ينظر لها مكملًا:

– فطه الآن يدخل الحياة الواقعية.. ويذهب للطريق الصحيح...

وهالها ما رأت في عين طه...

بحر من الدموع التي – كعادها – لا تهبط...

وبسمة في الشفاه مريرة لا تنتهي...

و...

وجرح في القلب لا يندمل...

-أنا كاتب همسة عابرة.. .

جاء غدًا، ومعه جاء أحمد ليخبرها بشيء لم يخبره لأحد مطلقًا...

وقد قاله...

وأكمل قصته:

– في شبابي أو مراهقتي.. كتبت أكثر من قصة.. كنت أجسد في الكتابة شيئًا ما ساحرًا جذبني بشدة.. عالم أصنعه بيدي.. أقول فيه كل ما خجلت منه وكل ما خفت أو منعت من أن أقوله.. لذا كتبت عدة قصص طفولية نوعًا.. عن ذلك البطل الوحيد القوي الذي يعشقه الجميع، وتحدث له مشاكل ما.. فتصبح قصة مغامرة وإثارة بطريقة ما.. وقد أعجبت الجميع حقًا...

وصمت ليسترد أنفاسه، ثم أكمل بصوت صعد خفيضًا رغمًا عنه:

– ثم أحببت...

– ماذا؟!

قالتها رغمًا عنها في غيرة، فنظر لها مندهشًا، فقالت مبررة في ارتباك:

– فقط لم أتوقع أنك أحببت يومًا...

صمت مبتسمًا فقالت بسرعة:

- هيا أكمل...

تجاهل الأمر تمامًا، وأكمل كلامه:

- عندما أحببت، اختلف أسلوب كتابتي تمامًا، أصبح أبطالي رومانسيون ويعشقون.. وكتبت عندما يبتسم الحب.. التي قرأتها دون علمي..

قالت بدهشة:

- لحظة واحدة.. كم كان عمرك عندما كتبت عندما يبتسم الحب؟!

قال باسمًا:

- سبعة عشر عامًا...

اتسعت عيناها ذهولًا، فأكمل هو:

- وكانت نقطة تحول.. لقد أعجبت القصة الجميع وانبهروا بها، ووجدت من يصورها له ليقرأها كثيرًا.. ومن لا يريد أن يعيدها لي...

ثم ابتسم للذكريات وقال:

- وهناك من أحب حبيبتي لمجرد أن عرف أنها البطلة...

غيرة عجيبة كانت تصرخ داخلها، لكنها لم تقاطعه وهو يكمل:

- وبعد هذا النجاح قررت كتابة همسة عابرة.. وكان اسمها أصلًا طفل اسمه الحب.. ووضعت فيها كل ما أملك من موهبة.. كتبتها في سنتين.. بكل صبر وتركيز.. وقد أحبها الجميع أكثر من أي شيء كتبته..

انعقد حاجبا نغم في حين أكمل هو:

– وكان الكاتب حسين عبد المجيد يقرب لحبيبتي من بعيد.. لـــذا فعلت هي لي مفاجأة.. لقد عرضتها على الكاتـــب لتأخـــذ رأيـــه وليحاول أن يطبعها لي أو يوصي الناس علي.. وبالفعل تحمس هو لها جدًّا.

وأكمل وقد ظهر الحزن على نبرات صوته:

– وبعد انتظار ستة أشهر كاملة.. نشرت القصة فعلًا.. لكن باسمه هو...

ورغم أنها متوقعة.. إلا أن عينا نغم اتسعت في دهشة...

وصمتت لحظات طالت، ثم قالت:

– ولماذا لم تفعل شيئًا.. ترفع قضية مثلًا..

قال بحزن:

– لا نسخ.. لا تسجيل في الشهر العقاري.. وقد أرسلت حبيبتي النسخة الأصلية لأنها لم يكن عندها وقت لتنسخها...

قالت منفعلة:

– وحبيبتك.. أليست شاهدة؟!

قال ببسمة هادئة:

– هذا ما اقترحته.. لكن بعد نزول القـــصة باســـم الكاتـــب.. أنكرت هي كل شيء.. وقالت إنه يكفيني فخرًا أن القصة نشرت في السوق.. ولا يهم الاسم.. بعدها كرهتُ كل شـــيء وقـــررت ألا أكتب ثانية.. ودخلت هندسة لأنسى...

ثم صمت لحظات طالت وهي تنظر له بحنان.. فأكمل هو وعينيه الحزينة تقتلها:

– وها أنا ذا...

وساد الصمت...

***

–لماذا لم تفعل شيئًا....

صاح بها طه الصغير وهو يحدث الغريب، وأكمل بانفعال شديد:

– لقد حطّم الأورج تمامًا.. ولقد لجأت لك.. ولم تفعل شيئًا...

استفزّه صمت الغريب التام فقال وهو يصرخ:

– إنني أحدثك.. رد علي...

كانا راكبين دراجته البخارية، فوقف طه الغريب بها، ثم ركنها في مكان ما، وقال ببرود:

– هيا.. هنا درسك.. سآتي لآخذك بعد ساعتين...

نظر له الصغير لحظة، ثم قال بعصبية:

– لا لن أصعد...

وأكمل بنفس العصبية:

– لقد انتظرت هذا اليوم لأحدثك بفارغ الصبر.. لن ينتهي بهذه السهولة...

قال الغريب بصرامة:

– لا يوجد شيء لنتحدث فيه.. لقد أخطأت فعوقبت.. هذا كل شيء.. والآن هيا... اهبط...

صاح طه الصغير بعصبية:

– أنت السبب...

نظر له الغريب مندهشًا، فأكمل الصغير:

– ألا تريد أن تعرف ماذا أفعل غير عدم حضور الدروس؟

ونهض من على الدراجة البخارية، واختطف علبة السجائر من علبة الغريب وأخرج سيجارة وأشعلها بسرعة قبل أن يتحرك الغريب حركة واحدة، فقال:

– ماذا تفعل؟

واتسعت عيناه في ذهول وغضب، وهو يرى الصغير يشرب السيجارة بطريقة تدل على أنه يشرب منذ زمن، فصمت تمامًا والصغير يكمل بكل غضب الدنيا:

– ليس السؤال هو ماذا أفعل.. السؤال هو لماذا؟!

وأكمل الشرح عمليًا...

لقد أمسك السيجارة بطريقة معينة...

نفس طريقة طه الغريب في شربها...

ونظر للغريب الواقف كتمثال، والصغير يكمل ودموعه تهبط:

– لأني أريد أن أكون مثلك.. أنا أحبك ومنبهر بك لدرجة أني أريد أن أكون مثلك.. أنا لم أحب العزف إلا لأنك تعشقه.. لم أدخل

القسم الأدبي إلا لأجبرهم على دخول معهد الموسيقى.. وهم يظنون أني أريد الإعلام أو السياسة والاقتصاد أنا أريد أن أكون مثلك...

كل كلمة ينطقها الصغير كانت تكوي قلب الغريب...

وتجعله يغضب أكثر وأكثر...

قال وصوته مخنوف من غضبه:

– لماذا تريد أن تكون مثلي؟!

همَّ الصغير بالكلام ولكن طه قال بسرعة وغضب:

– أتعلم كم هو مؤلم أن تكون مثلي؟

صمت الصغير، فأكمل طه بنفس الصوت المخنوق:

– أن تكون مثلي معناه أن تتألم في كل ثانية تمضي بحياتك.. أن تعيش عمرك كله وحيدًا.. لا تجد من يفهمك كما تريده أن يفهمك.

وأكمل وصوته يزداد علوًّا:

– أن تكون حياتك سلسلة من الآلام المتصلة.. ما بين ندم وكره وضياع.. وشوق وحيرة وقلب يحترق كل لحظة لندمه على عدم قول كلمة أحبك قبل موت من تحب..

وأمسك كتف الصغير وهو يكمل:

– أن يكون في يدك شيء ما.. وتضيعه لمجرد أنك أضعف من حشرة.. أضعف من أن تكون رجلًا ولو لمرة واحدة في حياتك.. أن يكرهك جميع من يحبك لضعفك.. أن يموت أبيك نادمًا لأنه أنجبك.. أن تتحول كل لحظة حلوة في حياتك إلى ذكرى مؤلمة.. تحرق قلبك قبل أن تسعده.

ونظر في عيني الصغير المذهول وأكمل:

– أن تحاول أن تبكي حتى تستريح.. ولا تستطيع لأنك لا تعرف كيف البكاء.. أن تحتقر نفسك تمامًا.. لأنك لا تستطيع لحظة واحدة أن تصلح ما بك.. أن تصرخ محاولًا أن ترجع بالزمن عشرين عامًا.. ولا تستطيع...

وأكمل هامسًا بغضب الدنيا:

– ... فتموت.. تشعر بأنك ميت لا توجد فيك بقية لـــروح.. صنم يمشي على قدمين..

ودفعه ليرتطم بالحائط مكملًا بغضب:

– وتقول إنك تريد أن تصبح مثلي؟!

وهز رأسه قائلًا بأسف:

– لم أتوقعك بهذا الغباء أبدًا...

وتركه ليركب دراجته وينطلق بها...

وخلفه طه الصغير يبكي وينظر له...

وهو يبتعد بسرعة...

ويبتعد...

***

... اهرب يا طه...

اهرب كما تعودت الهرب...

من مشاعرك ومخاوفك...

اهرب...

- محمد.. لا أستطيع أن أحدثك الآن...

قالتها أشجان الطيب هامسة في التليفون وأكملت مسرعة:

- يجب أن أغلق الآن...

جاوبها صوت قائلًا في رومانسية:

- سأقول لك شيئًا واحدًا فقط.. أحبك..

قالت أشجان ووجنتاها تتورد خجلًا:

- وأنا أحبك.. هيا.. سلام.. يجب أن أغلق السماعة.

- سلام يا حبيبة القلب...

- سلام يا حبيبي..

وأغلقت السماعة بسرعة...

وخرجت مبتسمة لتجد أمها واقفة وتمسك السماعة بيدها...

ودموعها تهبط على وجنتيها دون أن تدري...

***

-ماذا حدث؟.

قالها طه الغريب وهو يدخل شقة الطيب منزعجًا، وقد كان لم يزل غاضبًا من طه الصغير.. وعاد لبيت الطيب...

قال لغادة الجالسة في صمت:

- جئت فورًا إليك عندما استدعيتني.

رفعت عينيها له فصاح بانزعاج:

- ما بك؟.. أنت تبكي..

كانت لحظتها تكرهه...

تكرهه بسبب ما قالته ابنتها لها وهي تصرخ...

-أنا من حقي أن أحب كما أريد....

-لماذا؟.

-لأنه قد يكون حب عمري.. طه الغريب أحب في مثل عمري.

-يا حمقاء.. طه لم....

- طه أحب إنسانة عمر بأكمله.. ومحمد هذا أشعر نحوه شعور ما...

-يا بنيتي لا....

-لن تفهمي شعوري.. سلي طه عنه.. فهو يفهم ما هو الحب...

استعادت هذا الحوار وهي تنظر لطه الذي قال بقلق:

- ما بك يا غادة؟!.. هل فعلت شيئًا ما؟!

قالت بصوتها الذي يكاد يبكي:

- أشجان...

- ما بها؟!

- تحب.. تحب يا طه.

أشرق وجهه وقال باسمًا:

- هذا رائع.. أخيرًا أحبت...

وعندما وجدها تنظر له هكذا صاح بغضب:

- أتركها حبيبها أم ماذا؟

صرخت فجأة:

- أجننت؟!!

صمت مصدومًا من ردها فأكملت صارخة:

- أما زلت طفلًا بسبعة عشر عام أم ماذا؟!.. ألم تكبر بعد كل هذه السنين؟!

لم يرد وان عقد حاجبيه.. فأكملت بغضب أم يحترق قلبها على ابنتها:

- أما زلت ذلك المراهق الذي يعتقد أن الحب هو أهم شيء في الوجود؟.. أما زلت تعتقد أننا خلقنا لنحب فقط؟.. ألم تعرف أن الحياة مسئولية ونجاح وعقيدة؟!!

قال بهدوء وإن ابتسم قليلًا غير مصدق:

- وفوق كل هذا.. الحب...

صرخت فيه وهي تبكي:

- وماذا فعلت أنت بالحب؟.. ما أنت أصلًا.. أنت في تاريخ البشرية صفر.. ما هو تاريخك؟.. ولد.. ثم عاش عمره كله على ذكرى، ثم مات.. هذه حياتك بلا أية مجاملات...

صمت ناظرًا لها، فأكملت وقد شعرت بشفقة تجاه عينيه المصدومة:

- أنت لا تعرف قلب الأم يا طه.. ألم يخطر ببالك أن يجرح قلبها فتتألم؟.. أن تعيش على الذكرى مثلك.. فيصبح عندنا فاشلة أخرى؟.. أن تحب شخص ما حقا فيجرحها ولا تنجو من جرحها؟

وقالت وهي تبكي:

– وأنا في مثل سنها كنت أريد أن أحب.. وقلت إنني عندما أكون أمًّا لن أخنق ابنتي هكذا.. وعندما أصبحت أمًّا فعلًا.. وجدت أنني أخاف عليها أكثر من نفسي..

ونظرت لطه برجاء قائلة:

–أرجوك.. أقنعها بأن تترك ذلك الشاب.. وأن كلامك عن الحب هذا هراء في هراء.. وأنه ليس واقعًا.. أرجوك.. إنها تحبك وتثق بك..

وصمت طه الغريب وهو ينظر لها...

وطال صمته...

وبعد فترة طالت.. تكلم..

قال بهدوء تام:

– أنا آسف يا غادة.. لن أستطيع..

وأكمل:

– قد تكون فيَّ عيوب الدنيا كلها.. لكن إيماني الوحيد هو أن الحب موجود..

وقال بصرامة:

– وعندما سيكتب تاريخي سوف يقولون شيئًا آخر...

وأكمل بنفس الصرامة:

– عاش.. فأحب.. فمات...

وقال وهو ينصرف:

– لكني أعدك أن أبتعد.. تمامًا.

وانصرف ليغلق الباب خلفه بعنف وغادة تصيح ورائه:

- طه.. عد.

وانفجرت في البكاء مكملة:

- آسفة...

ولا حياة لمن تنادي...

طفل...
اسمه الحب

-أريدك أن تكتب قصة أخرى...

قالتها نغم في المكتب، ليلتفت لها أحمد بدهشة قائلًا:

- ماذا؟!

كان قد مر شهر كامل على آخر محادثة.. وإن كان من أسعد شهور نغم...

كانت علاقتهما تزداد عمقًا ومعرفة...

عرفت كم هو رقيق ورومانسي وخفيف الظل...

وهو عرف عنها أنها.. رائعة...

- أريدك أن تكتب قصة أخرى...

كررتها بإصرار فقال ببسمة ساخرة:

- من حق كل إنسان أن يحلم...

ضربت الأرض بقدمها وقالت:

- لقد مللت طفل اسمه الحب وعندما يبتسم الحب.. أريد أن أشعر شيئًا جديدًا بنفس الروعة.. افتقدت كلماتك.. أسلوبك...

ثم استندت إلى مكتبه وقالت ناظرة له مباشرة:

- من أجلي..

نظر لها لحظة ثم قال بهدوء باسم:

- أنا قررت عدم كتابة قصة واحدة.. وكنت جادًا في قراري...

نظرت له وقالت بضيق:

- ما هذه السلبية؟

قال بهدوء:

- أنا لا أريد أن أعيد تلك التجربة.. ليس أكثر...

قالت بضيق:

- أية تجربة؟

نظر لها وقال هادئًا:

-تجربة الفشل.. لا أريدها ثانيًا.

تألقت عيناها وقالت:

- لماذا لا تكتب عن هذا...

نظر لها متسائلًا، فأكملت بحماس:

- قصة رمزية.. يكون البطل فيها هو حلمك الذي فشل رغم روعة موهبتك!

قال باسمًا في سخرية:

- فكرة فاشلة..

قالت في إحباط:

- لماذا؟!

قال بنفس البسمة، وهو يعد على أصابعه:

– أولًا: لأنه لن يفهمها أحد.. ثانيًا: سأفشل في كتابتـــها لأني لا أكتب منذ فترة.. ثالثًا: ستكون قصة مملة وكئيبة جدًّا.. فلن يقرؤها إلا المرضى النفسيين ثم سوف يلعنوني بعدها!

قالت بسرعة:

– لا يجب أن تكون النهاية كئيبة.. يكمن للحلم أن يـــنجح إذا أصر على نجاحه.. ويظل يعلو ويرتفع حتى يكون أروع حلم...

صمت لحظة ثم قال بهدوء:

– ليس الواقع بهذه السهولة...

ثم قال بشرود:

– لكنها فكرة ليست سيئة.. بطريقة ما فيها شيء جديد...

قفزت وهي تصفق قائلة:

– حقًّا؟ إذن ستكتبها؟!

– لا...

– أيها السلبي...

نظر لها بتحدٍّ وقال:

– لست سلبيًّا على الإطلاق...

نظرت له بنفس التحدي وقالت:

– أثبت لي.. أثبت أنك لست سلبيًّا..

قال وقد أشعل تحديها عناده، فقال:

- حسنًا.. سأريك كم أنا إيجابي...

ونهض من مكانه ووقف أمامها قائلًا:

- انظري لي...

نظرت له بتحدي، فقال فجأة هامسًا:

- أحبك...

اتسعت عيناها ذهولًا، وتصاعدت الدماء في وجنتيها بسرعة البرق، ولم تصدق أذنيها، فهمست بصوت مبحوح:

- ماذا؟!

نظر لعينيها مباشرة، وقال بحنان لم ترى في حياتها مثله:

- أحبك...

ثم تركها وعاد لمكتبه وهو يقول:

- ومن أجل هذا فقط.. سأفكر في فكرتك وأحاول أن أكتبها...

كانت تطير...

نظرت له وفي عينيها فرحة الدنيا، وقلبها يخفق بعنف...

نظر لها هو وقال بهدوء كأنما تذكر شيئًا:

- آه.. صحيح.. أريد مقابلة والدك الخميس القادم الساعة السابعة مساءً.. إن كان هذا ممكنًا بالطبع.

كان يخبرها بكمية معلومات مفرحة بطريقة مباشرة تجعلها لا تصدق.. قالت بصوت مبحوح:

- ماذا تفعل بي؟

قال وهو ينظر لها بحنان:

– أكون إيجابيًّا مرة واحدة في حياتيَ كلها.

قالت وفرحتها في صوتها طاغية:

–ألن تأخذ رأيي حتى؟!

نظر لأعلى وفكر قليلًا، ثم قال ملتفتًا لها:

– لا.. لا أريد حقًّا.

ونظر لعمله وهم بإكماله في هدوء؛ فصاحت فيه حانقة:

– أحمد..

نظر لها لحظة، ثم انفجرا في الضحك معًا.

وبشدة...

***

–ما بك يا طه؟....

– لا شيء..

– أسبوع وأنت لا تحدثني.. ما بك؟

– لا شيء..

– أنت لم تغادر البيت حتى.. ألن تغادر تلك الغرفة؟!

–لا...

– أرجوك...

– ....

***

- ما بك يا غادة؟.. أسبوع على هذا الحال؟!

قالها الطيب بحنان وهو يمسح شعر غادة في رقة، وقد كانت جالسة جانبه على الفراش، شاردة تمامًا...

هبطت دمعتها على خدها، فقال الطيب بجزع:

- ما بك؟!

ثم حاول أن يمزح فقال بحنان:

- أكل هذا من لمسة يدي؟

ضحكت رغمًا عنها، ثم لم تلبث أن أمسكت يده في حنان وقبّلتها، ثم قالت:

- إني أدعو الله أن يبقي لي هذه اليد عمرًا بأكمله..

همس قائلًا لها:

-أحبك يا أحلى زوجات مصر..

وأكمل وهو يمسك بيدها:

-ألا تريدين أن تخبري رفيق حياتك الوحيد بما يحزنك؟

صمتت ودمعتها على خدها، ثم قالت أخيرًا:

- عائلتنا تنهار يا محمد.. إنها تنهار...

نفخ في ضيق وقال:

-أتقصدين طه ابننا؟.. إن ما هروبه من الدروس يســـ...

قاطعته هامسة:

- لماذا حطّمت أورجه؟

شرد قليلًا ثم قال بخفوت:

– كنت مرعوبًا.. عندما وقف أمامي ووجدته يعتــرض علــى حرمانه من العزف.. شعرت بأن أمامي...

وصمت لحظة مترددًا، ثم أكمل بحسم:

– شعرت أن أمامي طه الغريب.

وأكمل:

– وخفت أن يصبح مثله.. وجدتني أتمنى أي شيء في العالم إلا أن يكون ابني مثل طه الغريب.. ففعلت آخر شيء أتوقعه.. كان غضبي وخوفي قاتلين.

قالت بعد فترة صمت:

–هنا يأتي السؤال الثاني...

نظر لها فقالت باكية:

– هل أخطأنا عندما أدخلنا طه بيتنا.. وجعلناه من عائلتنا؟

صاح بها بســرعة:

– بالطبع لا.. طه صديقنا.. وسيظل عمره كله من عائلتي مهما فعل.. إنه يعشق أولادنا ويخاف عليهم.. هم في سن مراهقو ومنبهرين به قليلًا.. لكنهم سيكبرون ويفهمون.

هبطت دموعها أكثر وقالت:

– إذن يا محمد.. سامحني.

نظر لها عاقدًا حاجبيه فقالت:

– لأني طردته من عائلتنا...

وبكت مكملة:

– للأبد...

وصمت الطيب مذهولًا..

***

–ألن تغادر غرفتك؟.

– لا....

– مر أسبوعان!!

– لا...

***

–ألف مبروك.. كانت ليلة رائعة...

قالها أحمد سالم في خفوت، وهما جالسين في المكتب، ونظر للخاتم الرقيق الذي يزين يد نغم اليمنى...

ابتسمت في خجل وقالت:

–الله يبارك فيك...

ضحك بملء فمه، وقال:

– ما هذه الرقة المفاجأة.. إنني لم أعجب بك إلا لشجاعتك وعنادك.. ما هذا الاستسلام الرقيق؟

ضحكت بحياء، ثم تظاهرت بالمشاكسة قائلة:

– حسنًا.. لا تنظر لي اليوم إن استطعت.

قال بسرعة:

- بالطبع لن أستطيع...

ثم عقد حاجبيه وقال متسائلًا:

- إذن لماذا خطبتك أصلًا إلا لأنظر لعينيك كما أريد؟

ضحكت، ثم قالت بجدية:

- حسنًا.. أنت تعرف مهري.. أعني ما أريد كمهر.

قال ببراءة:

- أجل.. حوالي خمسة وعشرين قرشًا...

ضحكت ثم قالت ناظرة لهُ برقة:

- ليس الشرعي.. إنما مهري أنا.

صمت ناظرًا لها بلوم، لكنها لم تبال وقالت:

-القصة.. لقد وعدتني.

قال ناظرًا لها:

-أنا عند وعدي.. وفكرتك أعجبتني جدًّا.. لكن ستكون كئيبة جدًّا...

ذهبت لمكتبه ثم قالت:

-أنا سأقرأها.. مهما كانت كئيبة ومملة.

قال وهو ينظر لها بحنان:

- حسنًا.. سأكتبها.. ولكن بفكري أنا.. دون أي اعتراض.

وأكمل:

– وسأكتبها لك.. لك فقط.

وابتسمت نغم في سعادة...

***

–غادة.. أين طه الغريب؟!.

–اهدئي.. من أنت؟ وماذا حدث لــطه الغريب؟

–أنا أشجان.

كان الطيب وغادة يعرفان بأمر حنين التي هــي أشــجان.. وإن حذرهما نادر من أن يتقابلوا أو يتكلموا حتى ينتهي الشهران.

لذا قالت غادة بحنان:

– أفتقدك يا أشجان...

وكانت أشجان في أسوأ حالاتها فقالت بسرعة:

– كان مكتئبًا منذ أسبوعين ولم يغادر غرفته.. والآن عدت للبيت لأجده اختفى...

شعرت غادة بقلق شديد، وخصوصًا أنها تعلم أنها السبب.

ورغمًا عنها التفتت نحو النتيجة اليومية...

وتذكرت فجأة...

ثم ابتسمت في ارتياح وقالت:

– لا.. لا تخشي شيئًا...

وقالت بحنان:

– إنه عيد ميلادها...

صاحت أشجان بفزع:

- عيد ميلاد من؟!

قالت غادة في حيرة:

- حبيبته.. أشجان.. اللعنة.. إنه عيد ميلادك أنت!!!

وأكملت مبتسمة في حنان:

- طه دائمًا يختفي في هذا اليوم، ويذهب لمكان ما و...

توت توت توت توت توت....

***

صامت كقبر.. تنظر أمامك في شرود...

ظننت أنك نسيتها.. لكنك - ويا للأسف - لم تفعل...

فترة مضت، نسيت فيها الشرود وأصبحت تتحدث كثيرًا..

لكن اليوم يوم خاص...

يومها...

بخطًى متئدة.. ذهب داخل ذلك المكان الخاص بهما وحدهما...

وذهب نحو مائدة معينة تحجز له كل عام في هذا اليوم...

أما زالت الذكريات تؤلم هكذا؟!!

ظننت - بعد التغيير - أنها لن تؤلم إطلاقًا..

قدرك يا طه أن تتألم...

أخرج من جيبه تلك الكعكة الصغيرة، ووضعها على المائدة...

وأخرج من جيبه تلك الشمعة الصغيرة...

وأشعلها...

وأغمض عينيه في هدوء...

وأخذ يغني أغنية عيد الميلاد في صوت حزين...

وتذكر آخر عيد لهما معًا...

-كل سنة وأنت طيبة.

-وأنت طيب يا أحلى حبيب عشقته عيناي...

نظر لها وهو يرى سعادتها الطاغية.. وكان لا زال عنده سبعة عشر عامًا.. لكنه نظر لها وأخرج من جيبه علبة صغيرة، فنظرت له بفرحة، وقالت:

- لكنك قلت إنك لم تأتِ بشيء.

وأخذت العلبة في لهفة وفتحتها بسرعة...

وأخرجت ما بها.. وصاحت في انبهار:

-الله.. إنها رائعة...

كانت قلادة جميلة، بها دلاية على شكل نجمة، وكانت تبرق...

قال ببسمة صافية:

- طوال عمري كنت أتمنى أن آتي بنجمة من السماء إلى حبيبتي، ثم أعقدها في قلادة من القلوب العاشقة، فتنير رقبة حبيبتي طوال عمرها...

نظرت له مذهولة، فقال باسمًا في سعادة:

– لكنك تعلمين غــلاء النجوم هذه الأيام.. والقلوب كذلك.. لذا فقد أتيت بما يشبهها... أأعجبتك؟

– أحبك يا طه...

ثم ابتسمت في سعادة مستطردة:

– يا طه الغريب...

كان ما زال الاسم جديدًا.. أعجب الجميع ولم يعجبــه، فقــال بضيق مازح:

– اسمي طه حلمي سالم.. ناديني هكذا.

هزت رأسها أن لا في حماس قائلة:

– هو الغريب.. ولن يكون إلا الغريب.. هذا أنت..

وابتسم...

ذكريات.. ذكريات.

وأصبح الغريب هو أنت...

افتقدها حقًا يا طــه...

افتقدت حنانها...

افتقدت دفئها...

–طــه....

انتفض جسده في عنف وهو يلتفت لمصدر الــصوت ليجــدها هناك...

حنين...

كم استراحت هي عندما وجدته في نفس مكانهما...

وكم عشقته...

وكم غارت منها عليه...

قال ناظرًا لها في انزعاج:

– ما الذي أتى بك إلى هنا؟! وكيف عرفتِ هذا المكان؟!

أدركت الآن فقط أنها تسرعت، فقالت بارتباك:

– نادر.. نادر أخبرني أنك ستكون هنا.

– أيعرف نادر بهذا المكان؟.. عجبًا...

– لا بد أنك أخبرته وأنت لا تدري...

قالت هي بسرعة كي تقطع تفكيره:

– أتحتفل بعيد ميلادها؟!

نظر للكعكة الصغيرة والشمعة المشتعلة، وهز رأسه أن نعم...

جلست في الكرسي المقابل دون استئذان.. ثم قالت ناظرة له:

– أريد أن أطلب منك شيئًا...

قال وهو يحاول أن يقولها بألطف طريقة ممكنة:

– يا حنين.. أنا لا أريد الجلوس معك الآن.

قالت تداري خجلها:

– طبعًا.. فهذه ليلتها.. سأمشي لكن بعد أن تقول لي شيئًا.

نفخ في ضيق واضح، فقالت متجاهلة:

- أريدك أن تحكي لي عنها.. أتعلم أنك لم تخبرني باسمها حتى الآن؟!

صمت لحظة في شرود...

إنه يحتاج حقًا لأن يحكي عنها...

محتاج لأن يتكلم عنها على الأقل كي يشعر بالراحة...

عجبًا يا طه.. أنت تواجه بدلًا من أن تهرب...

تريد أن تتألم لا أن تهرب من الألم...

عجبًا...

ونظر لحنين بعين متألقة...

وانطلق يروي عن الماضي....

لأول مرة...

***

وشاب...
اسمه طه الغريب..!

— 10 —

أتريدين أن أصفها لك...

مستحيل...

إن شبَّهتُ شخصها بأشياء مادية كالجمال والروعة.. لأعطيتها أقل من حقها كثيرًا..

إنها هي...

بكل ما تحمل هي من معاني...

دخلت حياتي لتعلمني أشياء وأشياء...

علمتني كيف أحب الدنيا بأكملها.. حتى سيئاتها...

علمتني كيف أعطي دون مقابل.. لمجرد أني أحبها...

علمتني كيف أبدع وألحن...

علمتني كيف أكون أنا.. دون خوف...

علمتني الحب...

في الماضي.. كنت إنسانًا غير هذا الذي ترينه تمامًا...

كنت مراهقًا لا تفارق السخرية لساني.. شخصية اجتماعية جدًّا.. يحبني الناس أو أكثرهم.. وكنت – وهذا أهم شيء – عنيدًا، واثقًا، حالمًا...

كان أبي يفتخر بي وأمي راضية عني...

وكنت أنا راضٍ وفخور بحلمي...

كنت أريد أن أصبح ملحنًا أو عازفًا ماهرًا...

وعرفتها.. وأحببتها.. وأحبتني...

كان حبنا هذا مستحيلًا من كل الطرق ونهايته معروفة..

الفراق...

لكننا باندفاع الشباب داخلنا وجنوننا أحببنا بعضنا...

وعشت أجمل سنين عمري...

دعيني أحكي لك يوم لن أنساه أبدا....

***

كنا في ثانوية عامة.. وكنا نأخذ أحد الدروس قريبًا من بيتي.. وكانت تأتي لمحطة قريبة لنذهب للدرس معًا...

وكان الجو شتاء.. أنا بطبعي أعشق الشتاء...

وجاء اليوم.. وكنت منتظرها.. أحاول أن أدفئ نفسي بالجاكت الثقيل.. وأبتسم لمجرد أنها ستأتي الآن...

وهنا حدث شيء جميل...

لقد أمطرت...

بدأت تمطر خفيفًا، ثم بدأ الصقيع وزاد المطر...

وجاءت...

جاءت كضوء في هذا الغروب، لا لتنير الدنيا.. إنما لتنير قلبي...

هي – عمومًا – قصيرة ذات جسد صغير، لذا عندما انكمشت على نفسها من البرد والمطر بدت كعصفور صغير، أجمل من أن تكون واقعًا...

قالت لي بصوت مرتجف:

–هيا.. أوقف أي سيارة أجرة لنذهب للدرس...

قلت وقد لعب المطر في عقلي من السعادة:

– ولم؟!.. سنذهب مشيًا.

صاحت في غيظ:

– مشيًا؟! في هذا الجو؟!!

ونظرت لي كما نظرت لها...

وهنا يجب أن أقول إنه كان لنا أطول نظرة في تاريخ المحبين...

وأبلغها كلامًا...

كنت أنظر لوجهها المبتل في عشق...

وكانت تنظر لي في عشق...

لذا بعد صمت طال.. هزت رأسها في استسلام وقالت في حسرة:

– مجنون.. أحببت مجنونًا.

ضحكت في سعادة شديدة، وانطلقنا نمشي معًا...

هنا اشتدت الأمطار بطريقة جنونية...

هنا قالت شيئًا عن كفانا جنون، وبدأت تحتمي بالمحلات في جانب الطريق..

صحت بها وأنا أمشي بهدوء وسط المطر وأضحك:

-أشجان.. لا تفسدي المتعة...

صاحت فيَّ:

– كفاك جنونًا.. وتعال احتمِ معي بالمظلات...

كانت تضع الكتب فوق رأسها كأي فتاة محترمة تخاف على شعرها.. لذا – وكنت قد جننت تمامًا – فعلت آخر شيء أتوقعه...

لقد ذهبت لها وقلت آمرًا بصرامة:

– هيا بنا...

وأمسكت يدها...

وكانت أول مرة أمسك يدها...

لذا فقد نظرت لي بذهول، وخفق قلبي أنا بأعنف ما يمكن، وهمست لها:

– أتشعرين بالدفء الآن؟!

كانت يدها متوترة أو مشدودة في يدي، وعندما قلت هذا، وجدت يدها تستريح في يدي، وتومئ برأسها أن نعم...

هنا قلت صارخًا:

– هيا بنا...

وانطلقت أركض...

وهي معي...

هل عرفت يومًا شعور الطيور في السماء...

هل شعرت أنك مالك العالم يومًا.. ولا يوجد سواك أنت والحبيب؟!

ها شعرت أن الآن.. والآن فقط.. يبتسم القدر لك، ويضحك لك في رضا.. ويعطيك أجمل شعور في العالم؟!

أنا فعلت...

أحببتها...

وهذا هو كل شيء...

وأكثر...

وساد الصمت...

صمت طه عن الكلام...

ونظرة حنين الحانية له....

نظر لها طه وقال بصوت مخنوق:

-أريد أن أبكي حقًّا.. أن أبكيها.

قالت بصوت هادئ وهي تنظر له بحنان:

- و ما الذي يمنعك من البكاء...

- ربما أخاف إن بكيت، أشعر أنها ماتت فعلًا.

- و إن لم تبكِ؟!

- سأشعر بأني أفتقدها فقط...

- لكنها ماتت...

- لا.. لم تمت.

– بل ماتت.. منذ سبعة عشر عامًا.

– الإنسان روح لا جسد.. وروحها ستظل خالدة في حياتي مهما دارت الأزمان...

صمتت لحظة ودموعها في عينيها، ثم قالت:

– حرام.. حرام عليك أن تفعل هذا بها...

– أفعل ماذا؟!

– روحها في كيانك تحتفظ بها.. ثم بمنتهى البساطة تقتل روحك أنت.

– الإنسان لا يستطيع أن يكون بروحين.. وأنا اخترت.

– ولماذا تقتل روحك إذن.. يا طه الإنسان ما هو إلا روح تميزه عن الآخرين.. أنت كانت روحك طاغية.. يعشقها الجميع.. روح فنان مبدعة نقية خلاقة.. روح قلما وجدت في العالم...

– روحي قلما وجدت؟!.. روحها هي الوحيدة في هذه الدنيا...

– لكنك تقتلها ثانية.. لأنها ستموت لو رأتك هكذا...

وساد الصمت...

نظرت له لا تدري ماذا تقول.. ثم ارتفع حاجباها في ذهول.

فلأول مرة في حياة طه الغريب...

تهبط من عينيه دمعة...

هالها ما رأت.. وودَّت لو تحتضنه مهونة...

نظر لها بدموعه، ثم ابتسم في مرارة قائلًا:

– لقد ماتت أشجان إذن.

ورغم بسمته، هبطت دموعًا صامتة كثيرة وهو يقول:

– سأفتقدها حقًا.

وبهت صوته، وبكى بصوت مكتوم...

أمامه أشجان المذهولة التي تراه لأول مرة يبكي...

ويبكيها...

همت بأن تقول له إنها أشجان...

همت أن تقول له أحبك...

همت أن تحتضنه...

لكن شيء ما جعلها تصمت...

قال بخنق بعدما هدأ:

– من هذا الأحمق الذي قال إن البكاء يريح؟!

ابتسمت في حنان وقالت:

– الأطباء النفسيين كلهم...

– حمقى...

قالها بنفس الحنق، فضحكت رغمًا عنها...

قال بحماس لم يعرف من أين ظهر داخله:

– أتعلمين لماذا كنت مكتئبًا في الأسبوعين الماضيين؟!

– لماذا؟!

صمت لحظة ،ثم قال بهدوء:

- أتدرين ذلك الشعور، عندما تكوني سببا في تدمير حياة أقرب الأشخاص إلى قلبك؟!

نظرت له ، ثم قالت بشرود:

- صدقني.. لم يعرف أحد هذا الشعور أكثر مني...

قال بحماس ولم يلتفت لقولها:

- تشعرين بأنك تريدين أن تفعلي أي شيء ،كي تعيــدي هــذا الشخص لحياته السابقة، حتى لو ابتعدت كي ينـساك، أو - علـى الأكثر - تغيري من نفسك تمامًا حتى تحسّني من الشخص.. ولـو كان في هذا تضحيات كثيرة.. منها أن تخسري نفسك ذاتها.

وتألقت عيناه قائلًا:

- وهذا ما سأفعله.. من أجل طــه الصغير وأشجان الصغيرة.

ثم أكمل ناظرًا لها بحماس:

- وطه الغريب...

واتسعت عينا حنين في فرحة طاغية...

فللحظة.. وجدته أخيرًا في عينيه...

وجدت طه...

طه الغـــريب...

- ما بك؟....

قالتها نغم لأحمد الذي كان شاردًا تمامًا، ولم يرد.

كررت قولها بصوت أعلى، فالتفت لها قائلًا بشرود:

– ماذا هناك؟!

قالت بغيرة مازحة:

– من هذه التي شارد أنت فيها هكذا؟

صمت لحظة.. ثم قال باقتضاب:

– القصة...

تألقت عيناها في حماس وقالت:

– أبدأت فيها؟

هز رأسه نفيًا، وقال بنفس شروده:

– لا...

عقدت حاجبيها في إحباط وقالت:

– إذن فيم أنت شارد؟!!

قال وهو ينظر لها:

– ستكون قصة فاشلة...

ثم أكمل كأنما لا يحدثها:

– لكني قلت هذا أيضًا في طفل اسمه الحب...

همت بالكلام، لكنه قال وقد ظهرت الرؤية أنه لا يحدثها أساسًا.

– وهناك شيء أفكر فيه بشدة...

عقدت حاجبيها في غيظ ولم ترد، فأكمل هو فعلًا دون أي ملاحظة:

-- اسم البطل.. ماذا تقترحي أن يكون؟!

نظرت للسقف كي تستفزه وهي تعقد ذراعيها، فقال هو مستنكرًا:

– لا.. لا.. محمد سيف تقليدي جدًّا..

اتسعت عيناها في دهشة، وصاحت رغمًا عنها:

– وهل نطقت أصلًا؟!

التفت لها وقال شاردًا:

– ماذا؟!

ثم أكمل باسمًا:

– هيا.. شاركيني رأيك.. أريد اسمًا جيدًا..

سامحته بسرعة.. وفكرت قليلًا.. ثم همت أن تقول الاسم عندما...

– لا لا.. اسم سيئ جدًّا...

فزفرت في ضيق...

***

–انظري للقمر الآن....

قالها طه الغريب لحنين؛ فنظرت هي للقمر، وقال هو:

– الآن القمر شاحب قليلًا، يميل إلى الاصفرار.. إنها من اللحظات النادرة التي يتغير فيها لون القمر إلى الأصفر.. ربما للتغيير الذي أريد أن أفعله!

صاحت ناظرة له، وقد كانا في نفس ليلة عيد ميلادها:

- يا سلام.. القمر متغير فقط لأنك ستتغير؟!!

نظر لها وقال باسمًا:

- هذا ما علمتني إياه أشجان.. أنني والقمر واحد.. يحدث له نفس الأشياء.. نفرح معًا.. ونكتئب معًا..

ابتسمت للذكرى التي ما زالت تؤمن بها، بل إنها كانت - في الأعوام الماضية - تطمئن عليه من القمر، لكنها قالت كحنين:

- ألا ترى معي أن هذا هراء قليلًا؟!

هز كتفيه وقال باسمًا:

- هذا هو الحب.. أن تؤمني باللامعقول.. أن تتخيلي أن هذا الكون صنع من أجلك أنت وحبيبك فقط.. فما المانع - وأنا ملك العالم - أن يرتبط القمر بي؟!

ثم أشار لرأسها قائلًا ببسمة:

- هذا الحذاء لم يُصنع هباء.. دعك من الحقائق العلمية وهذا الهراء.. مشكلة العلم أنه أفسد الخيال.. ولا حب دون خيال جامح مجنون.. لذا فالمؤمنين بالعلم يستنكرون المحبين وخيالهم، والمحبون يستنكرون العلماء لجمود مشاعرهم..

ابتسمت لمنطقه، في حين أكمل هو باسمًا:

- ما فائدة أن أعرف أن ضربات قلبي الزائدة هي مرض وليس خوفًا على الحبيب.. ما فائدة أن أعرف أن المطر هو بخار ماء يتكون في السحب والضغط الجوي وهذا الهراء.. لم لا يكون المطر هو بكاء سحابة أو عطف الملائكة؟!

ضحكت هي فقال باسمًا في حماس:

– أعرف غرابة منطقي.. كم يضحك كل من يفكر بعقله.. لكن عندما يكون شحوب الوجه والألم سرطان أو مرض خطير.. لم لا نظنه بردًا طفيفًا؟

وأكمل أمام بسمتها:

– رأيي أن البساطة أجمل ما في الكون.. والعلم والمعرفة عقدوا أمورًا كثيرة.. إن الإحساس هو ملك كل شيء حتى لو كان خطأ.. فلا داعي لأن أفسد إحساسي بمائة تفسير علمي.. الإحساس الخام هو الأفضل.. ولتقم القيامة على هذا بعدئذٍ...

وصمت ناظرًا لها، ثم نظر للنجوم في شرود...

ورأى نجمتها الخالدة...

–الأقل ضوءًا وإشعاعًا... وأبعدهم رؤية...

أشار لها قائلًا لحنين:

– هذه نجمتها.. اختارتها دونًا عن النجوم كلها..

نظرت لها مباشرة وابتسمت..

قالت في غيرة لم تُخفِها:

– رحمها الله...

ابتسم في حزن قائلًا:

– رحمها الله...

ثمَ قال بحماس:

– هيا بنا...

قالت مندهشة:

– إلى أين؟!

قال بحماس:

– إلى أي مكان تريدينه...

– ماذا؟!!

قال بشرود:

– أريد أن أمشي قليلًا...

ونظر لها قائلًا ببسمة:

– فقد مللت من الجلوس...

ابتسمت في سعادة...

لكن شيئًا ما، لم يكن مريحًا...

ما سر هذا التغيير السريع جدًّا...

كم تخشى أن يكون مجرد حماس.. ثم يذوي بعيدًا..

كم تخشى...

***

–ألا ترى معي أن إعلان خطوبتنا قرار متعجل قليلًا؟.

قالتها سما في حياء شديد لنادر...

كانت علاقتهما تتطور يومًا بعد يوم.. حتى صار الحل الوحيد هو البوح..

فقالها نادر.. ووافقت سما..

هكذا بمنتهى البساطة.. دون مشاكل وتعقيدات.. كأنما خلقت حياتهما لتكون دون مشاكل..

ابتسم نادر في هدوء وقال رد على ما قالته:

– لماذا؟!

هزت كتفها قائلة في حياء:

– بلا سبب...

قال في خوف ظهر في صوته:

– هل تشعرين بأنك تسرعت بالموافقة؟!

قالت بسرعة:

– لا بالطبع لم أتسرع...

ثم انتبهت للهفتها فقالت بخجل:

– أعني.. أنا لا أتسرع في قراراتي عمومًا..

ابتسم في حنان وقال ناظرًا لها:

– إذن لماذا ترين أن نؤجل خطوبتنا؟!

نظرت له صامتة، ثم قالت في تردد:

– خائفة...

ورفعت عيناها في حياء لنادر الذي نظر لها متسائلًا، فأكملت:

– خائفة من أن تكون أنت الذي يتعجل...

ثم أكملت بصوت ملائكي عذب:

– كل ما تحبه فيَّ هو صورة رسمتها أنت عني طوال هذه المـــدة.. أخشى أن تكون سما الحقيقية ليست هي التي تحبها.. أخشى أن أكون أقل بكثير من الصورة التي في خيالك.. فتكرهني بعد أن تعرفني...

وصمت نادر تمامًا وهو ينظر لها...

نظر للملاك الماثل أمامه في خجل يجعلها أروع مـــن أن تكـــون بشرية...

همس لها قائلًا:

– أحبك...

لو كانت الظروف طبيعية، لأنزلت عينيها خجلًا...

لكن هذه المرة عينيها لم تطعها.. فقد استقرت على عيني نـــادر، وأعلنت الملكية التامة لهذه العين..

فنظرة نادر لم تكن طبيعية...

كانت بحرًا من الحب لم تجده في عيني أحد...

عين تتحدث.. تحتضن.. تحب..

قال هامسًا:

– التي أحببتها طوال سبعة عشر عامًا، لم تكن صـــورة صـــنعتها عنك.. بل صورة صنعتها أنت في حياتي.. لقد أحببتك أنـــت.. وإن كنت ستنجبين أو لا.. لقد أحببتك أنت.. فكيف بالله عليك تخشين شيئًا كهذا؟

كم أراح كلامه قلبها...

قالت بلسانها الذي لم يعد ملكها أيضًا:

– سأقول شيئين.. أولهما أني أوافق على أن تتم خطوبتنا في الميعاد الذي تريده.. والشيء الثاني طلب أكثر من أي شيء آخر...

قال بسعادة طاغية:

– مريني...

قالت بحنان:

– أريدك أن تنظر لعيني...أطول فترة ممكنة...

وخفق قلب نادر في عنف...

ونظر لها في عشق...

ونظرت له وقد ارتاحت عيناها في عينيه، كأنما أخيرًا وجدت المكان الذي تعرف أنها ستستريح فيه..

وطالت النظرة..

***

–محمد.. لا تذهب للدروس الليلة....

قالتها غادة في ابتسام، فنظر لها الطيب متسائلًا:

– ولماذا؟!

ابتسمت في حب وقالت:

– لقد أطبق علينا الهم.. ومنذ فترة وأنا حزينة.. أريدك أن تروِّح عني قليلًا..

ابتسم وقال في حنان:

– مريني...

ثم أمسك محموله وطلب رقمًا ثم قال:

- ألو.. يا حسن.. ألغِ كل دروس اليوم..

وصمت قليلًا كي يستمع، ثم هتف ناظرًا لغادة:

- أخبرهم أنه عنده أشياء أهم.. أجل.. أهم من أي شيء..

وأغلق الهاتف ناظرًا لها؛ فضحكت قائلة:

- أحبك...

ابتسم، ثم قال بحماس مباغت:

- هيا ارتدي ملابسك بسرعة.. سنذهب إلى أحلى مكان.

قالت وهي تنهض لترتدي ملابسها فعلًا:

- والأولاد.. أتحب أن يأتوا معنا؟!

صمت لحظة مترددًا، ثم قال باسمًا:

- لا...

وقبَّلها في خدها قائلًا:

- فالليلة ليلتنا...

ابتسمت وقالت ضاحكة:

- لم لا تلغي دروسك كل يوم؟!

وانفجرا في الضحك...

ونسيت غادة حزنها...

ولو لليلة فقط...

***

-كيف كنت تعيش طوال تلك الأعوام؟!....

قالتها حنين لطه في صوت حنون...

كانا في حديقة جميلة ليلًا وسط برد الشتاء الجميل...

نظر لها والنسيم القوي يعبث بشعره الناعم وقال:

- كنت أحلم...

- تحلم؟!!

قال ضاحكًا:

- أجل.. أحلم.

وأكمل وهو ينهض - وقد كانا جالسين على العشب - باسمًا:

- أعلم أنه هذا شيء قليل الحدوث في هذا الزمن.. لكني كنت أحلم...

وأغمض عينيه وهو يخلع معطفه، رغم الهواء الشديد الذي يزداد برودة واندفاعًا:

- أحلم باللحظة التي أعتلي فيها المسرح ويصفق لي الجمهور بشدة.. أحلم بزواجي من أشجان.. وابني الذي سيركض حولنا.. أحلم بالخلود.. بأعظم لحن يسمع في العالم.. فأحظى بالخلود..

ثم فتح عينيه وقال في استمتاع وهو يهز كتفيه:

- أحلم فقط.

قالت بهدوء حازم قليلًا:

– ولماذا كنت تسهر كل ليلة مع فتاة ليل وأنت تقول إنك مخلص لأشجان؟!

صمت لحظة، ثم نظر لها قائلًا:

– لأني ضعيف الإرادة.. لأني أضعف من أن أكون رجلًا مخلصًا.. أنا أحب أشجان ومخلص لها بقلبي.. لكني بررت لنفسي أن فتيات الليل مجرد شيء مادي.. لا يساوي حبي لأشجان..

وأكمل بشرود:

– لكن كما قلت.. ليس هذا إلا لأني أضعف من أن أكون مخلصًا..

اشتد الهواء بغتة، فقال بحماس مفاجئ:

– إنها ستمطر...

نظرت له مندهشة ثم قالت:

– كيف عرفت؟!

فرد ذراعيه على آخرها وقال:

– لا أدري.. أشعر بها...

ثم قال ملتفتًا لها:

– أتريدين أن تطيري؟!

نهضت هي بحماس لتقف جانبه وتفرد ذراعيها جانبها، وقالت ضاحكة:

– يجب أن تمطر، وإلا أصبح منظرنا في غاية السوء..

أغمض عينيه في تركيز وقال:

- لا تقلقي.. ستمطر...

ثم صمت لحظات أكمل بعدها بفرحة:

- الآن.

ما إن قالها حتى هبطت قطرات قليلة من المطر..

ثم - مرة واحدة - كثرت بشدة وأغرقت الدنيا كلها...

وصاح الغريب فرحًا وهو ينظر لأعلى يستقبل المطر في سعادة..

وضحكت حنين في فرحة...

وبينما يختبئ الجميع من المطر الشديد، ظل هناك مجنونان، فاتحان ذراعيهم، ويمشيان بمنتهى الهدوء وينظران لأعلى...

ويضحكان...

ضحكات صافية...

صاح طه بها ليتغلب على صوت المطر الشديد:

- أأنت مجنونة بما فيه الكفاية؟!

صرخت هي ضاحكة:

- ماذا تريد أن تفعل؟!

صاح مبتسمًا:

- نركض.. سأسابقك حتى هذه الشجرة هناك.

ضحكت وقد ابتلا تمامًا، ووقفا وقفة الاستعداد للسباق، ثم صاحت هي فجأة:

- الآاااان...

ثم انطلقت تركض قبله، فصاح بها:

- هذا غش...

وانطلق يركض وراءها بسرعة، وهي تضحك بشدة، ثم سمعته يصرخ بغتة في ألم، فنظرت له جزعة، لتجده يمسك قلبه في ألم شديد..

ذهبت له وقالت في قلق:

- ما بك؟!

بدا أنه يأخذ نفسه في صعوبة، فصاحت بجزع:

- طه...

نهض فجأة وانطلق يركض قائلًا وهو يضحك بشدة:

- حتى لا تغشيني مرة ثانية.

نظرت له وقد كاد قلبها يتوقف، ثم حسمت أمرها وركضت وهي تقول:

- أنت غشاش...

ثم لم تلبث أن ضحكت وهي تحاول أن تسبقه...

ويا لها من لحظات سعيدة يا طه!

ويا لهذا المطر الذي يجعلك تنسى نفسك تمامًا!

هدأ المطر.. ومعه هدأت أنفاس حنين وطه.. وهما يجلسان على أحد المقاعد المبتلة في الحديقة...

نظرا لبعضهما لحظات في صمت.. انفجرا بعدها في الضحك.

و...

–يا له من عرض ممتع!.. لكني – للأسف – لم أحتمل أن أكمله.. أنا متعجل دائمًا كما تعرف يا طه....

قالها صوت ثقيل، غليظ في هدوء...

صوت جعل كل ذرة في طه تنتفض...

***

مرت أيام كثيرة.. وأحمد سالم ليس كما هو...

أصبح شاردًا تمامًا...

حتى في كلامه مع نغم يشرد كثيرًا.. بل أصبح يفعل كل شيء بشرود غريب...

وفي يوم ما، قال أحمد لها باسمًا:

– لقد بدأت في القصة...

ابتسمت في سعادة، ثم قالت:

– حقًا؟!

نظر لعينيها لحظة، فارتبكت عيناها، فقال بهدوء:

– ما بك يا نغم؟!

همت أن تنكر، لكنها قالت رغمًا عنها:

– لا شيء.. فقط مر على خطوبتنا ثلاثة أسابيع، ولا أشعر بأني مخطوبة أصلًا...

نظر لها قائلًا بهدوء:

– ولم يا حبيبتي؟!

هزتها كلمته، فقالت بحنان:

– بسبب هذا مثلًا.. أنت لا تقول هذه الكلمة إلا قليلًا!

قال باسمًا:

– أنا فقط شارد قليلًا هذه الأيام في القصة و...

قاطعته قائلة:

– وهذا أيضًا أحد الأسباب...

ثم قالت:

– أريد أن أساعدك فيها.. أن أشعر بأنني جزء منها.. من القصة...

صمت ناظرًا لها ثم قال بأسف:

– لا أستطيع أن أشرك أحدًا معي...

نظرت له في إحباط، فاستدرك بسرعة:

– لكني أعدك.. أن كل سطر أكتبه سآخذ رأيك فيه...

ثم صمت ونظر لها قائلًا:

– يا حبيبتي..

ابتسمت رغمًا عنها، ثم قالت باسمة:

– متى تنتهي من القصة؟!

قال مبتسمًا في شرود:

–لا تقلقي.. سنتان فقط.

التفتت له وقالت مذعورة:

- ماذا؟!

قال مستدركًا:

- شهر.. بإذن الله شهر.

***

-هذا هو الموضوع يا نادر....

قالها الطيب لنادر في الهاتف، فعقد الأخير حاجبيه قائلًا:

- ومن يومها لم تره؟!

- أجل

صمت نادر قليلًا، ثم قال بحماس مباغت:

- زوجتك هذه رائعة...

- احترم نفسك...

- أنت تفهم قصدي.. زوجتك فعلت ما لم يفعله أحد...

صاح الطيب في دهشة:

- ما الذي فعلته هي؟!

قال عبقرينو في حماس:

- وضعت طه في مفترق طرق أخيرًا.. بيننا وبينه.. وضعته في المشاعر المناسبة كي يقرر.. إن كان سيعود طه الغريب.. أم سيظل كما هو.

- وماذا سيفعل هو في رأيك؟!

تألّقت عينا نادر في حماس وقال:

- سيعود.. بإذن الله سيعود...

***

صمت ثقيل ساد في تلك الحديقة...

نظرت أشجان في حيرة إلى هذا الرجل القادم وحوله ثلاثة أشخاص مفتولي العضلات.. وطه الذي نظر له بغضب الدنيا كلها..

كان أنيقًا جدًّا.. يرتدي ملابس فخمة.. شارب أنيق رمادي وسيجار فخم على شفتيه..

قال ببسمة خبيثة:

- هل قاطعتُ شيئًا مهمًّا؟!

نظر له طه طويلًا قبل أن يقول بغضب:

- ما الذي أتى بك هنا يا جلال؟!

بدا عليه دهشة مصطنعة وهو يقول:

- جلال فقط؟!.. منذ فترة ليست بطويلة كنتُ جلال بيه وجلال باشا!

وأكمل وابتسامته الهادئة غير مريحة على الإطلاق:

- ثم إنك لم تعرِّفني على هذه الفتاة الجميلة!

صمت طه طويلًا وهو ينظر له، في حين اقترب جلال من أشجان وهو يبتسم ابتسامة أنيقة قائلًا:

- جلال السيد.. رجل أعمال.

ابتسمت أشجان في ارتباك وقالت:

- حنين.. اسمي حنين.

أمسك يدها وقبلها وهو يقول:

- تشرفنا.

قال طه بصرامة:

- ماذا تريد مني يا جلال؟!

نظر له جلال في هدوء، ثم قال وقد بدأت ملامحه تتحول إلى الصرامة:

- كم يبدو سؤالك سخيفًا؟!

ونظر لأشجان وفي عينيه نظرة براءة مصطنعة تمامًا:

- أيرضيك يا آنسة حنين.. طه زبون عندي منذ ما يقرب من السبعة عشر عامًا.. يفعل ما يشاء ويدفع وقتما يريد.. وأنا أحتويه في أوقات حزنه وأسعده في أوقات فرحه.. عندما قرر فجأة كي يكسر الملل أن يجرب...

قال طه في صرامة مقاطعًا:

- لست أنا من قررت.. أنت من اقترحت وقلت إنها لن تحسب عليّ لصداقتنا...

لم يبال جلال بالمقاطعة، وأكمل ناظرًا لأشجان التي لا تدري ماذا تفعل:

- المهم أنه يا آنسة.. قرر أن يجرب القمار.. وكسب أولًا مما زاده حماسًا.. ثم خسر الكثير جدا بعدها.. وجاء ليقترض مني نقودًا...

وأكمل في حنان تمثيلي رائع:

– ومن كرمي.. وحسن عشرتنا وطولها.. أعطيته نقودًا دون أن آخذ مقابلها شيئًا كما يقتضي العرف عندنا.. حتى خسر تمامًا...

والتفت لـــطه قائلًا بصرامة مباغتة:

– قصة أفلام عربية رخيصة، لكن كل من يلعب يعتقد أنه أفضل من سيلعب.. يعتقد أنه سيختلف عن تلك القصة السخيفة.

وضحك قائلًا بسخرية:

– والمضحك أنهم كلهم يقعوا بنفس الطريقة.. كأنك تـــشاهدين نفس الفيلم لكن على مئات الحمقى.

انعقد حاجبا طه في غضب شديد وهو ينهض، في حـــين أكمـــل جلال متجاهلًا طه وناظرًا لأشجان:

– أيرضيكِ بعد كرمي وحسن ضيافتي.. أن يتهرَّب طه مني ومن كل النقود التي دفعتها له عن ثقة.. يتهرَّب ولا يرد على تليفوناتي؟

ومال عليها قائلًا:

– أهذه هي الأصول؟!

نظرت أشجان لـــطه الغاضب بذهول...

مهما تخيلت أن يهبط طه في هذا المستنقع لا تستطيع تخيل إلى أي مدى!

بدا طه غاضبًا وهو يقول:

– وإن قلت لك إني لن أدفع لك مليمًا يا جلال؟

طقطق جلال بلسانه وقال بهدوء شديد:

– لا أنصحك.. فقد راقبتك منذ فترة طويلة.. وجئت إليك هنا اعتبارًا لآخر أواصر الصداقة.. فأنا لا آتي أحـــدًا.. كلـــهم يـــأتوني راكعين.. لكني كنت أفضلك دومًا عن بقية الزبائن.. إن سبعة عشر عامًا من العمر ليست بالقليل...

قال طه بغضب لم يعتده داخله:

– افعل ما بدا لك.. أنا لن أدفع مليمًا في شيء أدخلتني أنت فيه وأنا في دنيا أخرى.. لن أدفع لحقير مثلك شيئًا.

هنا، وقع قناع جلال الأنيق، ظهر معدنه الأصلي في لحظات وهو يقول مشيرًا للرجلين بجانبه أن يتوقفا:

– حسنًا.. حسنًا يا طه.

وقال وقد ظهر غضبه واضحًا جليًّا:

– أمامك أسبوعين.. إن لم تعد نقودي لي...

ونظر لأشجان نظرة طويلة مخيفة.. ثم نظر لطه قائلًا:

– سيحدث ما لا يُحمد عقباه...

وأكمل ناظرًا لـــطه في تحدٍّ:

– هذه هي آخرة من يثق في أمثالكم من الحثالة...

ولأول مرة في حياته منذ فترة طويلة، لم يتقبَّل طه الاهانة.

شعر بالدماء الحارة في عروقه، وغضب كبير جعله يقول:

– حتى هذا الوقت.. تذكر هذه.

وقبل أن يتحرك أي منهم انطلقت قبضة طه في وجه جلال.

عودة..!

- 11 -

توتر الموقف واشتعل في ثوانٍ...

صرخت أشجان من المفاجأة والخوف...

وانطلق حراس جلال في غضب نحو طه الذي تراجع قليلًا مستعدًّا لولا صرخة جلال:

- توقفوا...

توقف الحرس رغمًا عنهم، في حين نظر جلال لطه في غضب وهو يتحسس مكان عينه الذي ضربه طه فيه.. وقال محاولًا أن يبدو هادئًا:

- يا خسارة يا طه...

وقال بغضب الدنيا:

- كم يؤسفني ما سيحدث لك فيما بعد...

وقف طه هادئًا.. في حين أدار جلال وجهه وجسده وانصرف خلفه حراسه...

نظرت له أشجان التي ما زالت عينيها متسعتان من الخوف:

- أيها المتهور الأحمق...

نظر لها باسمًا؛ فأكملت:

- لماذا فعلت هذا؟!

هز كتفيه في لامبالاة وقال:

- منذ وقت طويل لم أتصرف كما يخبرني إحساسي أن أتصرف.. وهذا الوغد كنت أريد لكمه منذ فترة طويلة..

ثم قال لها:

- هيا بنا.. تأخرنا.

تأبطت ذراعه كزوجة فخورة بزوجها، ثم قالت:

- بيني وبينك.. كنت أنتظر مزيدًا من الضرب والمشاجرة.. لم أتخيل أن ينتهي الموقف بعد هذه اللكمة.. وكنت أتوقع أنك ستضربهم كلهم في ثوان و...

قاطعها قائلًا في هدوء:

- لسنا في أحد أفلام الإثارة.. أنا لم أكن أستطيع أن أفعل سوى هذا.. فأنا لم أضرب مخلوقًا في حياتي.. وصدقيني إن اكتمل الموقف كنت سأصبح جثة هامدة تحت قدميك...

ركبا الدراجة البخارية وانطلقا بها بسرعة...

وشرد عقل طه...

ما هذا الذي فعله؟!

هذا الرجل رآه طه من قبل وهو يقتل رجلًا لمجرد أنه سبَّه سُبَّة بذيئة نوعًا...

فماذا سيفعل به الآن...

تغيرت يا طه دون أن تدري...

لأول مرة تشعر بالدماء الحارة في جسدك...

تشعر بالتوتر والغضب...

وكل هذا بسببها...

نظر لحنين من وراء كتفه، وقد أحاطت بذراعيها وسطه، وأسندت رأسها على ظهره.

هو لا يحبها...

ولن يحبها...

لكنها غيرته...

قلبت كيانه رأسًا على عقب...

ثم إن لها عيني أشجان...

وتصرفاتها...

تذكر بغتة نادر والطيب وغادة...

لقد افتقدهم حقًّا...

لذا فقد أدار الدراجة ليتجه لبيته...

بيت نادر عبقرينو...

***

– أوحشتني حقًّا أيها الوغد...

قالها نادر باسمًا، وهو يسلم على الغريب ببسمة واسعة، ثم سلم على أشجان مرحبًا بالاثنين معًا – حنين وأشجان – فسلمت عليه هي الأخرى.

قال الغريب بحماسه:

- أريد أن أفعل شيئًا.. وأريدك أن تشاركني فيه.

نظر له نادر متسائلًا، فقال الغريب بحماس:

- مفاجأة لـــطه الصغير.

نظر له عبقرينو باندهاش، في حين غمز الغريب له مكملًا ببسمة:

-وانتظروا صدور شريطي الجديد..

علت الفرحة في عينين عبقرينو وحنين وطه يكمل:

- شريطي الجديد.. ألحاني فقط...

أجل...

أنت تعلم مدى صعوبة العودة...

لكنك تريد بكل ما في داخلك من إرادة أن تعود...

وداعًا للشرود.. وداعًا للهرب.. وداعًا للامبالاة...

وداعًا للذكريات.. وداعًا للماضي.. وداعًا لأشجان...

ومرحبًا بطه الغريب..

كل هذه القرارات أخذتها وأنت في طريقك إلى هنا...

وستفعلها...

بطاقة كامنة طوال تلك السنوات ستفعلها...

ستعود يا طه.. ستعود طه الغريب..

ما لم يعلمه أحد أن طه الغريب مات مع أشجان وظل اسمه فقط..

لأن طه الغريب الذي عنته أشجان وأطلقت عليه الاســـم، هـــو الحلم.

حلمها بفارس أحلامها...

حلمها بما سيكون...

وإيمانها به...

إنه لم يتخرج من معهد موسيقى بامتياز هباء...

لكن بمجرد تخرجه، وصله الجواب...

جوابها...

التي تعلن فيه عن انتحارها.. بسببه...

هنا مات...

لكنه سيعود...

من أجلها سيعود...

طالما يمتلك حبها.. سيعود...

وداعًا يا أحلى المخلوقات...

أودعك يا أغلى ما في القلب...

سلام على روحك الخالدة في قلبي...

اعترف أخيرًا بموتك...

كما أعترف بعشقك...

-أخيرا يا طه...

صاح بها عبقرينو في حين صرخَتْ حنين في فرح شديد.. وأكمل عبقرينو بعد ما احتضنه:

– لكن أتظن أنك ستعود بعد كل هذه المدة؟!

قال باسمًا:

– لا شيء يصعب على طه الغريب..

ضحكوا في مرح، وقال نادر:

– سنشرب عصيرًا لهذا الخبر السعيد..

وذهب بحماس.. في حين نظرت حنين له وقالت:

– أنت تبهرني.

نظر لها.. وحملت عينيه ألف معنى وهو يقول هامسًا:

– أشكركِ.. على كل شيء.

ضحكت عيناها في حين عقد طه حاجبيه وقد تذكر شيئًا..

***

–وغلاوة أشجان في قلبك.. اعزف لي شيئًا....

–كم افتقدتك يا طه....

***

–أريدك أن تحكي عنها.. أتتخيل أنك لم تخبرني باسمها حتى الآن؟!.

***

قطع أفكاره صوت الهاتف، فذهب سريعًا ورفع السماعة بتلقائية و..

-لماذا تأخرت عليَّ.. افتقدتك حقًا...

استمع طـــه لصوت سما الدافئ بدهشة. وهو ينظر لنادر الـــذي أتى مهرولًا، ممتقع الوجه، ونظرات طه التي تحمل ألف معنى.

-لم لا ترد؟!.

ثم برقة..

-أتتصنَّع الدلال؟!.

ثم الكارثة...

-يا حبيبي...

ذهب نادر بسرعة ليجذب السماعة من طه، لكن الأخير ابتعـــد بسرعة عنه، وهو ينظر له ضاحكًا، والصوت يكمل...

-افتقدتك حقًا...

ابتسم طه وهو يقول:

- أهلًا سما.. افتقدكِ حقًا...

ثم صاح ضاحكًا ونادر يحاول خطف السماعة بسرعة:

- ولم أكن أدري أن المشاعر متبادلة لهذه الدرجة.

نجح نادر في خطف السماعة، وقال:

- سما...

ثم أكمل ونظرات طه تقتله بما فيها من معانٍ:

- لقد أتى فجأة.. نعم.. سنخبرهم..

وأغلق السماعة ناظرًا لطه بغضب، فصاح طه لحنين مقلدًا سما:

- لم لا ترد.. أتتصنّع التجاهل؟!!

صاح نادر وهو يضحك خجلًا رغمًا عنه:

- أيها الوغد...

وانطلق يركض وراءه وطه يصيح:

- سأغضب إن لم ترد.. يا حبيبي.

وساد الهرج وسط ضحكات حنين الشديدة...

قد بدأت تبتسم الدنيا...

فما أحلى بسمتها...

***

-لماذا لم تجعلنا نقضي عليه يا باشا؟!.

صاح بها أحد رجال الحرس لجلال، الذي قال بوقاره:

- لأنك أحمق...

وأكمل ببرود مرعب:

- أنا انتقامي له مذاق خاص.. دعه ينتظر في رعب حتى يمل.

وأكمل وابتسامته تتسع:

- وفي آخر وقت يتوقعه.. أظهر أنا.. لأعطيه شهادة وفاته..

ونفخ دخان سيجارته في هدوء شديد...

–هيا بنا...

قالها أحمد سالم لنغم في حنان، فالتفتت له متسائلة، فقال بحماس:

– هيا بنا نخرج.. نعتذر عن تكملة العمل، وآخـذك في نزهـة ستعجبك كثيرا...

ابتسمت للفكرة اللحظية، لكنها قالت في هدوء:

– ألا تظن أن لدينا عمل مهم؟!

قال باسمًا:

– أنا رصيدي في الإجازات كـبير.. كنـت أكـره أن أنفـرد بنفسي...

ونظر لها قائلًا في حنان:

– لكني سأكون معك الآن.

وأكمل:

– وأنا أعشق نفسي وأنا معك.

احمرّت وجنتاها، ونظرت للأرض بخجل، فذهب لها وقال بصرامة مازحة:

– اسمعي كلامي.. أنا رجل البيت هنا.. لا أريد إلا كلمة "سمعًـا وطاعة".

احمرَّت وجنتاها أكثر وهي تضحك. ثم نظرت للأرض قائلة:

- سمعًا وطاعة مولاي.

وتركت عملها وسلمت يدها ليده التي أمسكت بها في قوة لتجذبها معه إلى خارج الغرفة.. وابتسمت..

قال لها وقد ذهبا إلى مكان مطل على النيل:

- ما رأيك في هذا المكان؟!

نظرت له مبتسمة وقالت:

- جميل.. لكني أريد أن أسألك سؤالًا.

نظر لها مبتسمًا، فأكملت:

-كيف تكتب؟!

- ماذا؟!

قالت مبتسمة:

- كيف تكتب القصص؟.. ولماذا؟.. وما الشيء الجميل في كتابة قصة طويلة؟!

نظر لها نظرة طويلة، ثم همس لها:

- أغمضي عينيك.

نظرت له كمن ينظر لمجنون، ولكن نظرة عينيه جعلتها تغمض عينيها وتقول باسمة:

- سمعًا وطاعة.

ابتسم في حنان، ثم قال بصوته العميق:

- القصة حلم.. رغبة.. شيء بداخلك تريدين قوله صارخة، ويمنعك الواقع من قوله.. القصة خيال.. خيال تريدينه.. كل ما تريدينه يمكنك أن تحصلي عليه.. إن أردتِ أن تكوني مجنونة فستكوني.. إن أردتِ أن تكوني رائعة الجمال فستكوني...

وتألقت عيناه وهو يشرح بحماس:

- عالم تصنعينه.. عالم تملكين كل تفصيلة فيه.. كم المشاعر التي خلقها الله في قلبك.. تكتبينها سطورًا وراء سطور.. فارس أحلامك فيها وأروع الأحداث معه...

وصمت لحظة كأنما يحاول أن يشرح ولا يستطيع، ثم قال:

- الكتابة سحر.. عشق.. يخطفك وأنت لا تدري.. عالم خيالك أنت.. تصنعينه بيدك كي ترضي قلبك التوّاق للإبداع..

ثم خطرت بباله فكرة فقال لها:

- مثلًا.. أخبريني معنى الرومانسية عندك.. قمة الرومانسية..

مغمضة العين قالت حالمة:

- الموت...

انعقد حاجبا أحمد في شدة، في حين أكملت هي:

- أن يموت حبيبي..

قال رغمًا عنه:

- يا ساتر!

ضحكت وقالت:

- دعني أكمل...

وأغمضت عينيها ثانية وقالت بصوت حالم:

– أن يموت حبيبي.. وأعيش على ذكراه.. أعتقد أن هذا هو قمة الإخلاص.. شعور لا تستطيع أن تعطيه إلا لشخص واحد فقط.. أيًّا ذهب..

تجاهل شعوره اتجاه حلمها، وقال يكمل فكرته ببساطة:

– هذه فكرة.. ستكون القصة عن شخص..

وصمت بغتة وتألقت عيناه..

– ستكون القصة عن شخص...

كررها بشرود وتألق عينيه يزيد..

نظرت له غير فاهمة.. في حين انتفض هو وقال بحماس:

– أنت رائعة...

نظرت له متسائلة، لكنه كرر وهو ينهض:

– أنت رائعة...

وجذبها من يدها قائلًا بجنونه المؤقت هذا:

– سنعود الآن.. هيا..

وفي حالته هذه لم تعترض.. ونهضت في إحباط شديد...

***

–افتح الباب يا نادر....

صاح بها محمد الطيب لنادر الصغير الذي ذهب راكضًا ليفتح الباب بسرعة وفتح و...

–طه الغريب عاااااااااااااااااد....

صاح بها نادر الصغير بأعلى صوته وهو يحتضن الغريب في قــوة قائلًا:

– أوحشتني حقًّا...

بعثت صيحته النشاط في البيت فجأة؛ فقد انتفض طه الصغير في غرفته، وابتسم الطيب في فرحة صادقة، وضحكت غادة في حنان، في حين انطلقت أشجان الصغيرة صارخة في فرحة...

إحدى معجزات القدر أن يحبك هؤلاء الأطفال لهذه الدرجة يــا طه...

وبعد التحية المعتادة، التي نقصت طه الصغير، قال طه لنادر بهمس وهو يغمز له:

– نادِ لي أمك.. وحدها...

وكعادة أي طفل في السرية المطلقة، انطلق نادر بــأعلى صــوته صائحًا:

– أمي.. الغريب يريدك وحدك.. وحدك هه!!

ضحك الغريب رغمًا عنه، في حين خرجت غادة ببطء..

من أروع ما يميز هذه المجموعة – نادر والطيب والغريب وأشجان وسما وغادة – أنهم ظلوا عمرًا طويلًا معًا...

حتى أصبحوا لا يحتاجون إلى الكلام...

إنهم – جميعًا – يعشقون بعضهم.. رغم اختلافهم التام...

لذا.. فعندما خرجت غادة، نظرا لبعضهما فقط...

وكان هذا كفيلًا باعتذارات الدنيا كلها...

ومثل ما حدث مع عبقرينو من قبل، عبرت النظرات عن كل شيء، حتى اللوم والحب والافتقاد...

لذا – ورغم طول النظرة – قالت غادة بحنانها المعهود:

– كان البيت سخيفًا من دونك...

وقال الغريب مبتسمًا:

– وكانت حياتي سخيفة بدون هذا البيت...

وبسرعة عادت السخرية على وجه غادة وهي تقول متسائلة:

– بك شيء مختلف...

ثم بشك تام:

– هل استحممت؟!

ضحك طه بشدة في حين خرج الطيب ليحتضنه بشدة كعادته، ثم سأله:

– أيعلم عبقرينو بوجودك هنا؟

قال طه بمرح:

– نعم..لقد أوصيته أن يأتي بشيء مهم، ثم يعود لنا معه سما وأشجان..

انقبض قلب طه حين أدرك أنه أخطأ اسم حنين.. وتذكره لأشجان...

في حين تجمّدت عينا الطيب واتسعت عينا غادة قائلة:

- كيف عرفت؟!!

انعقد حاجباه في تساؤل وهو يقول:

- كنت أقصد حنين...

وساد صمت غريب بينهم...

ما هذا الذي قالته غادة؟!

أيمكن؟!!

***

أتى نادر وسما وحنين.. التي نظر لها طه طويلًا...

قال الطيب متسائلًا وهو يشير إلى تلك العلبة الكبير:

- ما هذه؟!

كان عبقرينو هو من يحملها؛ لذا فقد قال مبتسمًا:

- مفاجأة...

ثم نظر للغريب مبتسمًا في خبث، فصاحت غادة:

- ماذا تخفون؟!

صاح عبقرينو:

- يا طه يا صغير...

بعد فترة خرج الصغير من غرفته، وقد بدت عليه كآبة غير طبيعية.. وقال باقتضاب:

- أجل يا أستاذ نادر.. ماذا تريد؟!

انعقد حاجبا عبقرينو في استغراب لهذا الاستقبال الفاتر، في حين اتجه نحوه طه الغريب ومال عليه ليحتضنه قائلًا:

– لا داعي لتلك الميلودراما...

لم يتحرك الصغير، فأكمل الغريب همسًا له:

– آسف لعدم الوقوف بجانبك وقت أن احتجتني...

وأكمل همسًا للصغير الذي بدأت دموعه تظهر في عينيه:

– وأنني لم أكن قدوة جيدة لك...

وربت على ظهره مكملًا:

– وأنا هنا الآن.. لأعوضك.. وأعتذر..

مسح طه الصغير دموعه، ونظر له متسائلًا، فقال الغريب مبتسمًا:

– اذهب للأستاذ نادر حتى تعرف...

صاح نادر معترضًا:

– لن أفعل شيئًا إن ظل يقول أستاذ هذه...

ضحكوا جميعًا حتى الصغير، وذهب له قائلًا ببسمة:

– آسف يا عبقرينو...

هز نادر رأسه في رضا، ثم أكمل بحنان:

– هذه لك...

كانت علبة كبيرة تصل إلي نصف حجم الصغير أو أكثر...

نظر مندهشًا، ثم بدأ يقطع الغلاف الذي عليها في لهفة والجميع يراقبه مبتسمًا.. وما إن رأى ما فيها حتى صاح بفرحة الدنيا:

– إنه أورج جديد.. من أحدث الأنواع...

وذهب يحتضن نادر بشدة قائلًا:

– أشكرك.. أشكرك يا أروع إنسان في الدنيا..

في حين نظر له الطيب مترددًا بشدة...

لقد اتخذ قرارًا صارمًا بعدم العزف...

صحيح أن ابنه بدأت درجاته في التحسُّن، وأصبح منتظمًا، ويذاكر جيدًا.. إلا أن قراره كان صارمًا.. وهو أبٌ وله كلمته..

وبينما يهنِّئ الجميع طه الصغير تجمَّد وجه الطيب...

–محمد...

سمع هتاف غادة الحنون من جانبه، فنظر لعينيها الحنون وهي تقول:

– من أجلي...

وأكملت هامسة بعينيها التي تترجاه في حماس:

– دعه من أجلي.. لقد أخطأ وتعلم.. لا داعي لعقابه طوال الوقت..

هنا صدر قرار الطيب...

ذهب ببطء إلى الصغير الذي يمزح مع أخته ونادر وسما وحنين، في حين ظل طه الغريب يراقب الموقف في صمت...

وحين وقف وراءه، التفت طه الصغير له في وجل، منتظرًا رد فعله في حذر..

هنا قال الطبيب مبتسمًا:

– مبروك يا ولدي.. حافظ عليه جيدًا...

ابتسم الصغير واحتضن أبيه قائلًا:

– شكرًا يا أبي.. شكرًا.. نت أروع أب في الدنيا..

ثم احتضن أمه قائلًا:

– وأنت أروع أم في الدنيا...

وساد الضحك...

سعادة، سعادة، سعادة...

أكان يجب أن تتغير حتى تجد تلك السعادة؟!

التفت لحنين التي تراقب الموقف مبتسمة...

كل شيء في مشاعره يخبره بأنها هي...

عيناها التي تحبه تخبره...

لكنك – ببساطة – لا تريدها أن تكون أشجان...

أشجان روح أَحَبَّتْكَ...

أشجان من أضعت عمرك عليها لأنك مخلص...

وحنين مشاعر غَيَّرَتْكَ...

فلماذا لا تريدها أنت أن تكون هي هي؟!

لحظتها التفتت هي لتنظر له...

والتقت عيناهما...

عين حائرة تسأل.. وعين مطمئنة تجيب..

أحبك يا طه...

أحببتك وأنا صغيرة حبًا مستحيلًا...

وأحببتك وأنا ناضجة...

أحببتك في كل حالاتك...

مجنونًا.. هادئًا.. عابثًا.. حييًا.. عاشقًا.. باردًا.. ضائعًا.. لا مبالٍ...

أحببتك...

تقول إن روحك أسوأ من أن تحتفظ بروحي...

أقول أنا لك.. إن روحي لا تستوعب هذا الحب...

ولا هذا الإخلاص...

انظر لعيني يا طه...

أنا أشجان...

صدِّق شكوكك.. واعلم أني أنا أشجان...

اخطفني مع قلبي من بينهم...

أنا التي أحبك وسأحبك حتى آخر عمري...

إنه أنا...

لكن عينيه غير المصدقة ترفضان...

لقد أصبحت أشجان داخله أسمى من أن تكون حية..

-لا.. لا يمكن...

قالها طه الصغير وهو يتجه للغريب مكملًا:

- لن ألمس الأورج.. إلا بعد أن يعزف عليه الغريب بنفسه...

شجع الجميع فكرته، فابتسم طه وهو يذهب للأورج، وجلس أمامه...

وفجأة ودون مقدمات بدأ يعزف...

وتصاعدت أنغامه الجميلة...

وكان يعزف لحنًا جديدًا تمامًا وهو مغمض عينيه...

وعندما انتهى بعد فترة قصيرة.. صفّق الجميع في إعجاب وغادة تقول:

- ما هذه المقطوعة يا طه.. لم نسمعها من قبل...

هز كتفيه في حيرة وقال:

- ولا أنا.. لقد كنت أجرب الجهاز فقط..

نظروا له في انبهار، خصوصًا طه الصغير الذي صاح:

- خرب الله بيتك.. أنت تحبطني.. كل هذه الروعة وتجرب فقط؟!!

وضحك الجميع ضحكات صافية...

وقف عبقرينو فجأة قائلًا:

- عندي لكم خبر رائع...

نظروا له متسائلين فأكمل في سعادة:

- بعد أسبوعين بإذن الله.. ستتم خطوبتي لسما...

انفجرت الدهشة على وجوههم لحظة، ثم انطلقت التهنئات من كل جانب وعبقرينو وسما يستقبلانها في خجل...

واختتمت غادة وحنين التهنئات بزغرودة أسمعت الحي كله..

وأعقبتها الزغرودة الثانية من طه الغريب والطيب...

وضحك الجميع في سعادة وهم يسمعون طه ويصفقون معه...

وللحظة.. ابتسم القدر...

وابتسمت الدنيا...

***

-للأسف.. لن يكون الموت نهايتكما....

وكما تضحكنا....

تبكيـــنا..!

–رائع...

صاح بها ذلك الرجل الضخم قليلًا، وذو شارب ضـــخم وقـــال بحماس:

– هذا شريط رائع...

ثم نهض وذهب ليجلس بجانب حنين مكملًا بنفس الحماس:

– من هذا المبدع الذي ألّف هذه الألحان الرائعة...

قالت باسمة:

– طه حلمي.. اسم الشهرة طه الغريب...

نظر لأعلى كأنما يتذوق الاسم، ثم قال بحماس:

– طه الغريب!.. اسم جميل..

همست:

– أعلم..

قال بحماس وهو ينهض:

– من إنتاج شركتي، وبمؤلف يضع الكلمات، ومطرب مشهور..

ثم نظر لها قائلًا:

– يكون أروع شرائط العام...

تنحنحت أشجان ثم قالت مبتسمة بحرج:

- لي طلب آخر.. قد يبدو مزعجًا بعض الشيء.. أريد الشريط ألحانًا فقط.. دون كلام أو غناء.. فقط ألحانه..

انعقد حاجباه مفكرًا، ثم قال مبتسمًا:

- رغم أننا هكذا سنحظى بنصف النجاح المطلوب فقط...

وأكمل:

- لكن أباك له أفضال كثيرة علي.. وأيضًا لأن الألحان رائعة...

ثم أكمل باسمًا:

- سنبدأ حملة إعلانية كبيرة.. لن ننشر الشريط أولًا.. يجب من حفلة.. حفلة له وحده بألحانه.. حفلة برعاية شركتي الكبيرة..

وأكمل خطته المرتجلة:

- وسيعزف أحلى لحن في الشريط.. حيث نجعل الناس متلهفة على سماع باقي الألحان.. إن ألحان كهذه قد يكتب لها النجاح بسهولة.. وبعد الحفلة نعلن عن صدور الشريط.. هكذا نحقق ما نريد..

ثم مال عليها قائلًا:

- وأخبريه أنه لو حقق النجاح المطلوب.. فله مني خمسة وعشرون ألف جنية مصري..

اتسعت عيناها في ذهول قائلة:

- للشريط؟!

ضحك بشدة، ثم قال:

– للحن الواحد...

اتسعت عيناها في ذهول...

كل هذا لشريط طه القديم...

ماذا عن الجديد؟!

كان يتكلم في الهاتف مكالمة مقتضبة، قال لها بعدها:

– هذا هو مفتاح الاستوديو الخاص بالشركة.. اذهبا يوم الثلاثاء التاسعة مساءً..

ألقيا نظرة وسجلوا اللحن الجديد بمساعدة مهندس الصوت الموجود هناك...

ونظر في دفتر خاص به وقال في تركيز:

– ويمكن أن يكون الحفل في...

وأخذ يقلب صفحاته مكملًا:

– بعد أسبوعين...

صاحت مفزوعة:

– لا.. أنا لم أخبره بعد.. أسبوعان فترة قصيرة من أجل الاستعداد نفسيًّا لكل هذه المفاجآت..

قال لها بصرامة:

– إما أسبوعين أو سبعة أشهر.. لحسن حظكم أن هناك اعتذار عن حفل بعد أسبوعين، وهذه فرصة قلما تحدث.. تعلمين أن الوقت من ذهب.. وأنا لا أمزح ها هنا..

وقال لها بابتسامة:

– هيا.. أخبريه بسرعة.. لا وقت لديكم.. وسأتكفّل بالحملات الإعلانية.

نهضت في توتر وهمت بالانصراف؛ فقال لها ليتأكد:

– طه حلمي؟!

التفتت له بسرعة قائلة:

– لا..

ثم أكملت بثقة مبتسمة:

– طه الغريب...

***

–لا.. لا تعني لا...

قالها الغريب في بيت الطيب حيث تجمعوا كلهم، لتطلق حنين قنبلتها في وسطهم، وكان قد أتى المساء...

وأكمل الغريب بعصبية شديدة:

– أنت مجنونة.. تذهبين بشريطي دون علمي لمنتج مشهور.. وتتفقين معه على حفل كبير ودعاية وإنتاج.. وأنا بدأت يومي متوقع أن أقصى نشاطي اليوم هو أن أقلل من السجائر..

ونظر لها كمال في عصبية:

– وتتوقعين مني أن أوافق على حفل بعد أسبوعين فقط؟!!

قالت حنين باسمة في خجل، وهي تفتح التلفاز:

– وهذا أيضًا.

نظر للتلفاز ليجد إعلانًا ينتهي.. فلم يفهم فأشارت له.. حنين أن يصبر.

وكان هناك إعلان آخر...

ظلام دامس، ثم ضوء خفيف يظهر من بعيد، ويأتي شخص مسربل بالظلام، ليجلس على أورج.. وصوت المذيع الرومانسي...

–طه الغريب.. قريبًا...

نظر ذاهلًا للتلفاز، ثم تحول الذهول إلى غضب شديد وقال لها:

– سأقتلك...

انطلقت تركض في حين أمسكه نادر وهو يضحك، وقالت حنين وهي تحتمي بمقعد كبير:

– ألم تكن تريد التغيير؟!.. جاءت الفرصة..

صاح بها وهو يقاوم نادر:

– أريد أن أتغير في بطء.. سنة.. سنتين.. ليس في أسبوعين.

صاحت غادة هذه المرة وهي تقف جانب حنين:

– لِمَ الغضب أيها الأحمق؟.. أنت تستطيع أن تفعلها.. وببراعة أيضًا.

وأكمل الطبيب وهو يمسك بكتف غادة في حنان:

– أجل يا طه.. لقد حان الوقت كي تعود.. افتقدناك.

وقال طه الصغير وهو يقف بجانبهم:

- إنك عازف رائع.. وفعلًا تغيرت.. أثبت لنفسك أنك قادر.. وستفعل.

وقالت أشجان الصغيرة وهي تقف بجانب الصغير قائلة:

- نعم.

نظروا لها في صمت، مبجّلين عبقريتها، في حين قال نادر وهو يذهب ليقف بجانبهما:

- يا غريب.. أعلم أنك خائف.. لكننا معك.. وسنساعدك.

ووقفت سما بجانبه في صمت.

وصمت طه الغريب ناظرًا لهم.. ولتجمُّعهم كلهم جانب بعضهم.. لمساعدته.. همس في ضعف:

- أتقفون إلى جانبي حقًّا؟!

أومأوا برءوسهم أن نعم في حماس.. وقالت سما مبتسمة:

- ناحيتنا هي التفاؤل والاختبار الحقيقي للتغيير.. وناحيتك هي الضعف والتشاؤم والخوف.. فاختر الآن.

نظر الغريب لهم ليجد أنه وحده فعلًا في هذه الناحية، فنظر لنادر الصغير الذي كان يلعب بلعبة وقال له:

- نادر.. ألن تأتِ إلى عمو طه وتقف ناحيته؟

قال ببراءة وهو يلعب:

- لماذا؟!.. أعبيط أنا؟!

ضحكوا جميعًا وطه ينظر لهم.. وبخطًى بطيئة اتجه نحوهم.. وعبر لناحيتهم.. عبر للأمل.. والتغيير..

***

- 14 -

ظلام...

أنت تعشق الظلام عمومًا...

وعلى نور "أبجورة" صغيرة تكتب...

الباقي في القصة قليل...

وأنت تريد أن تنتهي منها ولا تريد...

مر عليك أكثر من شهر لكنك تكتب...

بعين دامعة.. تكتب...

بقلب يتألم.. تكتب...

هذه قصة أخذت منك الكثير...

وقتلت داخلك الكثير...

لكنك تكتب...

وتكتب...

***

قال الطيب وهو ينظر لغرفة طه الغريب المغلقة عليه:

- نادر.. إنه داخلها منذ فترة.. أتظنه سينجح؟!

ولم يرد نادر..

***

الاستوديو.. يوم الثلاثاء.. التاسعة مساء..

لأول مرة يدخل طه الغريب استوديو...

كانت معه حنين، ووضعوا الأورج في مكانه، وسلَّم على مهندس الصوت الذي كان مستعدًّا لاستقبالهم.. ودخلوا الغرفة العازلة للصوت..

قالت له أشجان في هدوء وهي تبتسم:

– ما هو أول شيء ستفعله عندما تقول كلمتك قبل الحفل؟!

ابتسم قائلًا وهو يتحرك في الغرفة بحماس:

– لا أدري.. لكني سأقول رأيي فيهم بصراحة.

قالت باسمة:

– وما هو رأيك؟!

قال باسما وهو يجلس على الأورج:

– أنني أحتقرهم جميعًا.

انعقد حاجبا حنين في دهشة، فأكمل بجدية:

– أحتقرهم لسطحيتهم وبرود مشاعرهم.. أحتقر كل من سمح بقتل شيء جميل داخله ليستمر في هذه الدنيا كما يريدها الناس أن تكون.. كلهم يسعون لأن يعيشوا فقط.. لا داعي للأحلام لأنها لا تؤكل العيش.. فتجدين نفسك بلا أية ميزة إلا أنك كررت مسيرة حياة كل من سبقوك.. وعندما تحلمين.. تجدين ألف من يخبروك بأنك بلا فائدة.. وكل ما تفعلينه هراء في هراء.. ودعكَ من الأوهام

وادخل في الواقع.. كأنهم كلهم فهموا فلسفة الكون وأنت الأبله الذي ما زال يحلم كطفل.. أحتقر كل من أصبح مثل أي شخص آخر بلا أية ميزة...

ثم ابتسم بغتة قائلًا:

– تخيلي أن أصعد المسرح فقط لأقول لهم...

وصمت لحظات مفكرًا، ثم قال مبتسمًا:

– لكم كثير احتقاراتي...

ضحكت أشجان قائلة:

– ماذا؟!

هز كتفيه وقال ضاحكًا:

– "ولكم كثير احتقاراتي".. بدلًا من لكم تحياتي.. تهنئاتي..

ضحكت بشدة وقالت:

– لكن في اللغة العربية لا توجد احتقاراتي هذه.

قال مبتسمًا وهو يمد أصابعه على الأورج:

– هذه هي الميزة!!

ثم التفت لها قائلًا:

– هذا اللحن سأهديه لك.

أغمض عينيه بعد أن نظرت له مندهشة، وفرد أصابعه على الأورج أولًا كعادته الأثيرة... وبدأ يعزف.

واتسعت عيناها في فرحة.. إنه ذلك اللحن الذي لم يكملــه... وبكت عندما لم تستطع أن تكمله...

لقد أكمله...

أغمضت عينيها لتكمل العالم الذي دخلته من قبل لكنــه كــان مقطوعًا.

-ورأت نفسها عروسًا وهو عريسها...

ورأت ذلك الدم في قميصه ناحية قلبه...

والبسمة التي على شفتيه رغم جرح قلبه...

ورأت نفسها تبتعد ولا تقاوم... وهو يحاول منعها ولا يستطيع...

هنا اكتمل الحلم...

رأته وحيدًا.. ما إن ينهض حتى يقع...

رأته يموت...

تذهب روحه وراءها.. ويظل جسده يمشي رحلته...

وبكت.. وشعرت نحوه بالشفقة.

هنا.. تغير اللحن تغيُّرًا جميلًا...

ورأت هذا الشيء الجديد الذي أمسك بروحه...

ويدفعها.. لتعود لجسده...

فيعتدل الجسد ويمسك أورجه ويعزف...

بسعادة.. بفرحة.. بشوق...

وإذ باللحن يخفت تدريجيًا...

بمعنى أنه سيستمر في العزف.. حتى يموت...

وانتهى اللحن...

وساد الصمت...

نظر لها وهو يفتح عينيه.. ليطالع وجهها المبتسم في سعادة، وأنفها المحمر من البكاء.. قالت في تأثر:

– أنت رائع...

ابتسم في سعادة وهي تكمل:

– اللحن رائع...

قال باسمًا:

– إذن هذه هي التي سنسجلها الآن...

قالت بحماسها:

– ما اسمها؟

صمت مفكرًا لحظة، ثم ابتسم قائلًا:

– رحلة..

ثم أكمل باسمًا:

– رحلة عمر.

وبدأوا التسجيل...

–ألو...

– ألو..

– يا إلهي.. أمي؟!

– كيف أحوالك يا طه؟!

– افتقدكِ حقًّا يا أمي.

– وأنا أيضًا افتقدتكَ كثيرًا.

– مُريني يا حبيبتي؟

– سمعنا عن حفلك.. متى؟!

– بعد أسبوع...

– نريد أن نحضره.. أتريدنا هناك؟!

ضحك طه بسعادة الدنيا وقال:

– بالطبع.. ستصلكم تذاكركم اليوم.. فأنا أرسلتها دون أن تقولي.

– مبارك يا ولدي.. خذ أختك معك..

صاحت به أخته:

– طه.. أين أنت يا رجل؟.. أنت نذل لا تسأل.. لكني سأراك أخيرًا في الحفل.

ثم أكملت بعدها في حنان:

– أخيرًا يا فتى.. أخيرًا حققت حلمك.. بعد الحفل ستأتي معنا.. نحتفل بك كعائلة واحدة أخيرًا.. فلقد أوحشني احتضانك.. سأعطيك أحضانًا حتى تبكي مللًا.

قال ضاحكا:

–لن أمل أبدًا يا عمري.

قالت مبتسمة:

– مريم ويوسف يسلمون عليك.. وزوجي بالطبع.

قال ضاحكًا:

– ابعثي لهم قبلاتي.. بالذات مريم؛ لأنها تشبه أمها.

وضحكوا معًا بمنتهى السعادة.

***

ويظل حولك الظلام...

وتكتب القصة يا أحمد سالم...

نغم تكلمك وأنت تكتب...

وتكتب...

- 15 -

الحفل...

جاء فجأة رغم أن الكل ينتظره...

كان طه الغريب قد ألف ثلاثة ألحان مختلفة وسجلها.. وكان باقي الشريط من ألحانه القديمة ولكن بتوزيع جديد...

كان شريطًا رائعًا...

الحفل...

حيث تتوتر الأنفاس، وترتجف كل شعرة بالجسد...

في حياته كلهالم يتوتر طه الغريب هكذا...

كان كل شيء فيه يدل على أنه خائف...

الحفل..

حلمك يا غريب على بعد ساعة...

كل ما تمنيته في حياتك يتحقق بعد ساعة...

حياتك التي كنت تريدها، وتنازلت عنها من أجل موتها...

الآن يتحقق كل شيء...

النجاح والشهرة و...

حنين...

أقرب واحدة إلى قلبك بعد أشجان رحمها الله...

نظر في ساعته، ليجد أنه ما زال هناك نصف ساعة كاملة...

حياتك كلها لم تمر ببطء نصف الساعة هذه...

كان في غرفة تغيير الملابس، ومعه نادر يشجعه...

التفت الغريب حوله متوترًا وقال:

- أين حنين؟!

نظر له نادر مبتسمًا في خبث، وهو يعدل له ياقة البذلة وقال:

- لا تقلق.. أعتقد أنها تنتظرك وسط الجمهور...

الجمهور...

يا لسعادتك الآن...

لقد أتت اللحظة التي تنتظرها.. أن تعزف أمام جمهور.. وتعزف ألحانك...

يا له من حلم كان بعيد المنال.. بل كان مستحيلًا.

شعر بسعادة غامرة جعلته يبتسم وهو ينظر لنفسه في المرآة..

تغيرتَ يا طه...

عينك الآن واثقة...

واقف كأنك ملكت الدنيا...

فقد عاد لك كل شيء...

العزف.. التلحين.. الأصدقاء..

عادت إليك نفسك...

ظهر رجل عند الباب قائلًا:

- عشر دقائق على رفع الستار...

وفجأة.. ضرب جرس محموله...

انتفض.. لم يتوقع هذا إطلاقًا، وأخرج تليفونه ليجد رقمًا غريبًا، فرد عليه قائلًا:

- ألو...

جاوبه صوت وقور:

- طه الغريب؟

انعقد حاجباه بشدة وقال وهو يمسك سماعة الهاتف بقوة:

- جلال؟

رد عليه صوت قاسٍ قائلًا:

- لم تتوقعني.. أليس كذلك؟!

صمت الغريب تمامًا، فأكمل صوت جلال الساخر:

- حنين تسلم عليك.. لكن واضح أنها غير سعيدة بجلستها معنا.

أغمض الغريب عينيه ألمًا، وقال بهدوء غريب:

- إذن هذا هو انتقامك.. أليس كذلك؟!

- للأسف هذا صحيح.. أناْ هنا.. خلف الملهى الليلي.. وطبعًا ستكون رقبة حنين في يدك قبل أن نسمع سارينة بوليس واحدة...

قال طه في محاولة يائسة:

– سآتيك بعد الحفلة..

– بعد ماذا؟!

وضحك بشدة وهو يكمل في تهكم:

– إذن كيف سأنتقم؟!

وأكمل بصرامة:

– لك الاختيار.. إما أن تأتيَ بعد خمس دقائق.. أو أفعل بها ما أشاء.. واعلم أنك لو أتيت.. لن أرحم فيك شعرة.

ارتجف قلب طه بين ضلوعه، والرجل يكمل:

– الاختيار سهل وبسيط.. بينها.. وبين كل ما تتمناه.. ومرحبًا بك في انتقام جلال السيد.

قالها وانفجر ضاحكًا وهو يغلق في عنف.

***

ويكتب...

ويكتب...

***

صمت...

أغلق عينيه ألمًا...

وخواطر في العقل لا معنى لها...

لديك الاختيار...

أشجان ماتت لأنها تحبك...

وحنين ستموت لأنها تريد أن تغيرك...

حنين...

حنين...

اللعنة على تلك الظروف...

اللعنة على ذلك التغيير...

الدنيا تدور...

والوقت يمر...

وأنت كصنم واقف...

اختيار بسيط...

أبسط من أي اختيار...

بل هو نفس الاختيار...

بين حلمك... وواقعك...

هل لحلمك في هذا العالم أية قيمة؟!

هل تتنازل عن حلمك ثانية، من أجل فتاة...

لكنها ليست أي فتاة...

إنها حنين...

هل تحبها؟!

لا.. بل نعم.. بل لا..

هل تميل إليها؟!

لا.. بل نعم.. بل لا..

إذن لم التضحية؟!

هي من أدخلت نفسها في حياتك...

من ناحية أخرى.. هي من أصرت على موتها...

لقد رفضت أنت دخولها...

وهي أصرت...

اللعنة...

قرار بسيط لكن مؤلم...

قلب يدمي.. وضمير مؤنب...

لكن منذ متى ملكت أيًّا منهما...

قلبك وحلمك لأشجان...

فكيف تقتله هكذا من أجل أخرى؟!

وصدر القرار...

بلا رجعة...

وبعين دامعة، عدل رباط عنقه، واتجه ببطء لخشبة المسرح..

نظر للبشر وهم يتحركون بحماس...

وبخطًى بطيئة يرى المسرح وخشبته و ستاره المنسدل...

***

-الإنسان لا يستطيع أن يكون بروحين.. وأنا اخترت....

***

.... يذهب إليه المخرج المسرحي، فما إن يجده حتى يشير له بحماس.. ويشير له أن يدخل المسرح ليجلس على الأورج الموضوع في انتظاره...

يذهب طه بخطى بطيئة...

***

-كنت أحلم....

-تحلم...؟.

***

إنه حلمك...

حلمك أمامك وأنت ذاهب إليه...

فلماذا تمشي كالمحكوم عليه؟!!

دموعك في عينك لا تهبط...

عدت لنفس الألم...

جلس على الأورج وسمع أصوات الناس المتكلمة في مرح...

نظر للستار لحظة...

وابتسم...

اعتدل في جلسته بحماس، وفرد أصابعه على الأورج لحظات دون أن يعزف...

كعادته الأثيرة...

وبعين مليئة بالدموع... وبسمة على شفتيه... جلس على آلته متخيلًا الجمهور بعين الخيال...

عالم الخيال...

عالمك...

دقات المسرح...

وحده هو وأورجه على المسرح كله.. جلس مستعدًّا...

وصوت المذيع الداخلي يقدمه...

***

-إذا استطعت أنت أن تهرب من الدنيا وتنتصر على نفسك بالهرب.. فاعلم أن هناك قوة إضافية أضيفت لنفسك.. لن تجعل الهروب ينتصر ثانية...

***

-ولتعلم أن هذه القوة هي...

أنا.....

***

صوت المذيع يقول في حماس:

– ولأول مرة على مسرح ... الفنان طه الغريب...

صفَّق الناس بحماس، بما دل على أن لحن طه أعجبهم، ودوى التصفيق عاليًا، وانفتحت الستار ببطء...

ليهدأ التصفيق مرة واحدة...

وتسري همهمة متعجبة...

فخلف الستار، كان هناك الأورج...

فقط...

دون أدنى أثر لطه الغريب...

ختام

قصة القصة...

– 16 –

– لقد تأخر.. ألا تظن أنه قد أبلغ البوليس؟!

قال جلال يرد على الحارس وهو ينظر لحنين الباكية:

– لن يفعل.. فقد رأى كثيرون يفعلون.. وفشلوا..

نظرت له أشجان بغضب:

– أنت أحقر من عرفت.

ابتسم هو ناظرًا لها بلامبالاة...

ونظرت له هي منهارة...

هاهي لثاني مرة تحطم حلمه...

كم تدعو من قلبها ألا يأتي...

فالآن تساوى عندها الموت من أجله...

كانت تخشى الموت وكتبت له أنها انتحرت...

لكنها مستعدة لأن تموت من أجله الآن بلا ذرة تردد...

تذكرت كيف كان يحبها...

كيف كان مخلصًا لها...

كيف جعلها تغير منه كحنين...

يا إلهي.. لا تجعله يأتي...

دعه يحقق حلمه الذي عاش عمر دونه...

وسأموت راضية حقًّا...

لم تكن مقيدة بأي شيء.. فقط كان يمسك بها حارس عمــلاق.. وكان حولهم أربعة منهم...

قال أحدهم بغلظة:

– مرت عشر دقائق ولم يأتِ.

قال جلال في هدوء:

– لا بأس..

هنا دخل أحد حراسه عليه هذا المكان المقفر خلــف الكباريــه مباشرة، ليقول بلهفة:

– لقد جاء.. ودون أية أسلحة.

انهار قلب حنين حسرة، في حين قال جلال بأسف:

– خسارة.. كنت أحبه حقًّا.. لكنه أحمق..

هنا.. ظهر طه الغريب يدفعه أحد العمالقة بقوة.

ووقف الغريب لينظر لأشجان بعين ضاحكة...

عين خالية من الدموع...

عين راضية...

قالت ببكاء:

– ما الذي أتى بك يا أحمق؟!

وأكملت بسرعة وأمــل:

– أنت تعرف أبي فتاة ليل.. اذهب لحفلك وسأتولى أمرهم.

نظر لها بعين ضاحكة وقال هامسًا:

– أنا الآن مستريح...

قال جلال بمرح:

– يا لك من غبي يا طه!

نظر له الغريب وقال بقوة:

– دعها.. أنا هنا بين يديك.

ابتسم جلال وقال بثقة:

– إن أرادت هي أن تمشي فلها ذلك...

نظر الغريب لحنين المنهارة متسائلًا، فهزت رأسها في عنف أن لا، فنظر لجلال قائلًا بصرامة:

– أعطني كلمتك.

ابتسم جلال وقال بثقته:

– أعدك ألا أمسها أو أوذيها.. حتى إنني سأوصلها بنفسي.

وهز رأسه وقال مبتسمًا:

– أنت جئت.. هذا كل ما أردته.. أن أحطمك.. بهذه البساطة.. لأنه لا أحد يهين جلال السيد ويعيش.. ولتكن عبرة لمن يعتبر.

انفجرت أشجان باكية...

وساد الصمت...

صمت مشحون...

وأشار جلال للحراس الخمس...

فتحركوا ببطء...

ووقفوا أمام الغريب الذي استقبلهم بابتسامة قائلًا:

– كل هذا من أجلي؟!

–الآن....

انطلقت من فم جلال كالرصاصة.. وما إن قالها حتى امتدت يد أحدهم بخنجر ليطعنه..

واخترق الخنجر صدر طه بعنف..

وشهق بعنف متألمًا..

هبط على ركبتيه..

ألم شنيع في كل جسده..

لكنه أغمض عينيه بشدة وابتسم..

صراخ حنين الهستيري..

تنطلق ركلة في وجهه لتطرحك أرضًا..

وانهالت ركلات متوالية على جسده وهو مستسلم تمامًا..

ثم النهاية المريرة..

عندما انطلق خنجر يطعنه في صدره ثانية..

وبمنتهى القسوة.. انتزع الخنجر ثانية من جسد طه الذي لم يطلق صرخة ألم واحدة..

ولا صرخة ألم..

نهض جلال وقال بهدوء للحراس:

- هيا.. سنذهب قليلًا حتى.. يموت...

وذهبوا...

ووقفت حنين ناظرة لجسده الغارق في الدماء، يتلوى بشدة من كثرة ألمه، ملقًى أرضًا لا يستطيع النهوض..

***

-لسنا في أحد أفلام الإثارة.. أنا لم أكن لأستطيع أن أفعل سوى هذا.. فأنا لم أضرب مخلوقًا في حياتي.. فصدقيني إن اكتمل الموقف كنت سأصبح جثة هامدة تحت قدميك...

***

بكت وهي لا تصدق..

ذهبت له مسرعة.. وأراحت رأسه على ذراعيها..

ونظر لها هو باسمًا..

نعم..

باسمًا..

قال بعينه الضاحكة:

- أنا الآن مستريح..

وأغمض عينيه من كثرة ألمه، وقال مكملًا:

- كان سيصبح حلمًا ملوثًا بالدماء.. لو تركتك.. أنا مـــستريح الآن..

بكت بشدة وقالت بدموعها:

- أنت لن تموت.. لن تموت.. سأذهب للـــ...

وضع يده على فمها ليسكتها..

كان الأمر واضحًا.. لا وقت..

وصمت لحظة وهو يأخذ نفسه بصعوبة، وأكمل:

- أسوأ ما في الموت.. أنك تكون في القبر وحيدًا..

بكت أشجان بانهيار جانبه لا تستطيع الكلام..

واحتضنته بشدة بين ذراعيها..

-ستمطر...

قالها بهدوء شديد فنظرت أشجان له..

علت ابتسامة فرحة على شفتيه وهو يقول:

- الآن.

وهبط المطر..

هبط عليهما ليختلط بدموعها وهي تنظر لوجهه الوسيم..

غرقت ملابسها بدمائه فقال ناظرًا لها:

- لا تبكي عليَّ.. لقد اخترتُ.. وراضٍ عن اختياري..

احتضنته بشدة ثم لم تحتمل..

صرخت بكل ما فيها وهو في حضنها:

-أنا أشجان يا طه.. أنا أشجان يا حبيب القلب.. أنا من أندم كل لحظة في عمري افترقت فيها عنك.. أحبك.. من أجلي لا تذهب...

صمتت لحظة.. فوجدته صامتًا تمامًا، فنظرت له لتجده مغمض العينين، فهزته قائلة:

– طه...

وابتسمت مكملة:

– لا تمزح معي...

ثم علا صوت بكائها:

– لا تمزح معي.. أنت لا يمكنك الموت بهذه السهولة.. طه...

وانفجرت في البكاء...

وصرخت حتى لا تصدق الحقيقة بينها وبين نفسها..

وببطء.. أراحت رأسه على الأرض.

وتأملت ملامحه للمرة الأخيرة.

ونهضت باكية.

***

الحفل...

سرت همهمة غاضبة وسط الجمهور لهذا التأخير، وبدأ البعض في الانصراف بالفعل..

نظرات نادر القلقة لسما ونظرات الطيب القلقة لغادة..

الأورج واقف وحده يرمق الجماهير بلا مبالاة..

وهنا ساد صمت ثقيل..

وتعلقت عيون الجماهير بتلك السيدة التي غرق فستانها بالدماء، والتي كانت تمشي كالمنومة مغناطيسيًّا على خشبة المسرح..

ببطء شديد تحركت السيدة إلى الميكروفون.. وأمسكت بـــه في هدوء شديد وقالت:

– أرجوكم الصمت..

وصمت الجميع بلا مناقشة..

قالت السيدة أشجان بذلك الصوت المتماسك:

– توفي إلى رحمة الله.. طه حلمي أحمد.. الشهير بطه الغريـــب.. مات.. مضحيًا بكل شيء مقابل راحة ضميره.. وقلبه..

وخانها صوتها وبكت وهي تقول:

– مات لأنه أحب...

وتركت الميكروفون لتجلس أرضًا وتبكي...

وانطلقت صرخة الأم عالية في القاعة وبكت هي وأخته...

نادر نهض عاجزًا عن فعل شيء وهو لا يصدق أذنيه.. وسما تربت على ظهره مهوِّنة.. وبكى الطيب بشدة وهو يحتضن غادة التي كانت منهارة...

***

–أنا الآن مستريح....

مات طه الغريب...

وسرت همهمة في القاعة بين متعاطف ومتأثّر...

ووسط البكاء والنحيب الشديد..

تصاعدت أنغام جميلة...

أنغامه...

وارتفعت العيون مذهولة، لتجد طه الصغير واقف أمـــام الأورج ويبكي..

ويعزف..

يعزف ألحان طه الغريب..

وبكت العيون مع الأنغام التي سرت في أرواحهم...

واستمر طه الصغير يعزف...

أمام انهيار أشجان.. يعزف...

أمام بكاء الجميع.. يعزف...

فبينه وبين نفسه كان قد قرر...

قرر أن يكمل هو الحلم بدلًا منه...

لذا فقد عزف.. وعزف...

حتى آخر العمر...

***

— 17 —

وتمر الأعوام..

مرت عشرون عامًا بالتحديد..

وننظر لنجد تلك السيدة الكبيرة المتشحة بالسواد تذهب للمقابر..

اقترب.. لا تخف.. أنت تعرفها جيدًا..

إنها أشجان...

فقط تغضن وجهها وكبرت كثيرًا...

ذهبت لمقبرته، ودخلتها في هدوء، وجلست جانب شاهد القبر...

عينها دامعة.. أترى ذلك معي؟!

عين دامعة حزينة، لا تهبط منها الدموع...

ألا يذكّرك هذا بشيء؟!

ابتسمت قائلة:

– أرأيت؟!! لم أتركك يومًا منذ جئت أنت إلى هنا..

وقالت في حنان مستعيدة كلماته:

–أسوأ ما في الموت.. أن تكون في القبر وحيدًا.. ها أنا ذا.. معك، ولا أنساك عمري...

ثم صمتت قليلًا، قالت بعدها:

– كما تعلم.. تزوج نادر وسما بعد ذهابك بعام.. لم ينجبا حتى الآن.. لكنك لن تتخيل كم هما سعيدين معًا.. فحبهما كان أكبر من كل شيء...

وأكملت بابتسامة سعيدة قائلة:

– يزداد الطيب شهرة في دروسه.. وتزداد غادة خوفًا على أولادها.. أشجان أنجبت فتاة جميلة، ونادر الصغير يعمل مدرسًا كأبيه.. طه الصغير الآن ملحن كبير.. ألحانه تحمل طابع ألحانك كثيرًا...

وقالت بحنان:

– إنه يذكرني بك كثيرًا.. لكنه أخذ موهبتك وإصرارك.. يمكنك أن تقول إنه أصبح ما أردت أن تصبحه أنت.

وبابتسامة حزينة أكملت:

– كلهم مضت حياتهم.. إلا أنا...

وهزت كتفيها في حيرة مكملة:

– أنا لا أعلم أي شيء إلا أنني أحبك.. لا أجد في حياتي أي معنى إلا أني أحبك.. أصبحت كأني لا أنتمي للدنيا.. أنتمي لك وحدك.. إنهم يمزحون معي ويطلقون عليَّ أشجان الغريب؛ لأني أتبع خطاك.

ثم ابتسمت في حنان مكملة:

– إن ما أشعر به يجعلني أتفهَّم لماذا انتظرتني عمرًا.

ودمعت عيناها مكملة:

– جئت أخبرك يا حبيبي أننا نتذكرك.. جميعًا.. نتذكرك في حياتنا وفي كلامنا.. دائمًا نجدك حولنا.. كأنك جعلتنا لا نستطيع الاستغناء عنك أبدًا.. كلام نادر والطيب عنك وعن مواقفك.. غادة.. التي ما زالت تلبس السواد مثلي عندما تخرج.. وزيارتهم لك كل شـــهر.. كلنا نحبك.. وكلنا نعشقك.. أما عني...

وبكت بشدة قائلة:

– فإني غاضبة.. لقد تأخر الموت عليَّ كثيرًا.. أنتظـــره بفـــارغ الصبر حتى ألقاك.. لكنه يأبى أن يأتيني.

ثم ربتت عليَّ.. عليه مكملة:

– أحبك يا طه.

وأخرجت ذلك الترمس والطعام.. وجلـــست تحدثـــه بـــصوت خافت...

جلست جلسة من لم يمشِ قريبًا.

بل اعتاد الجلوس أطول وقت.

ألا ترى معي أنه حان وقت الذهاب؟!

نبتعد عن هؤلاء الاثنين لنعطيهما بعض الخصوصية.

فقط علينا أن نقسم أنهما اثنان خلقا لبعضهما.

وبطريقتهما العجيبة سيظلان هكذا.

حالة خاصة.

أشجان، حنين...

وطه الغريب...

وآن لنا الانصراف...

***

قالت نغم وهي تنظر لرزمة الورق الكبيرة أمامها:

– ما هذا؟!

بعين دامعة قال أحمد سالم:

– القصة.. لقد انتهيت منها.

ابتسمت في فرح، ثم نظرت للعنوان قائلة:

– طه الغريب؟!!

ثم تذوقت الاسم قائلة:

– اسم جميل.

وقالت مبتسمة:

– إذن هذه هي قصة حلمك الذي مات؟!

نظر لها قائلًا بصرامة:

– لا.. هذه قصة أي حلم اختبأ خلف الواقع.

نظرت له في تردد، بعينه الحمراء وقالت:

– لماذا أنت متأثر هكذا؟!

صمت ولم يرد.

وللمرة العاشرة يسأل نفسه..

لماذا قتل طه الغريب؟!

قال ودمعته تهبط:

– لأن هذه القصة إعدام لجزء مهم جدًّا فيَّ.. إنها قتل للخيال.. وضعفه أمام خصم شديد وهو الواقع.. إنها اعتراف مني بأن الواقع ينتصر.. دائمًا ينتصر.

ثم صمت لحظة، قال بعدها:

– ها هو مهرك.. سنبدأ من غد في إجراءات الزفاف.

وانصرف تاركًا إياها.

فتحت أول صفحة.. وبدأت تقرأ...

–ها هي ليلة أخرى قد مضت...

سعادة لحظية تمر بها ثم تعود ثانية لفكرك الذي يخنقك...

غلاف: محمد عيد

واقع هو أم خيال؟...

أحلم هو.. أم مجرد شيء حقيقي؟...

هل هذا هو الواقع؟...

أم ما اخترته أنا لنفسي ليصبح واقعًا؟..

ولكم كثير احتقراتي..

لكم يا من جعلتم الواقع واقعًا..

وبأيديكم جعلتم الخيال خيالاً..

وأنا لن أفعل شيئًا سوى أن أغمض عيني وأتخيل..

لأنكم لا تستحقون أن أفتح عيني لكم لحظة..

فمني أنا.. كاتب هذه السطور...

لكم كثير احتقاراتي..







دار اكتب للنشر والتوزيع
DAR OKTOB PUBLISHING HOUSE